فايز موسى ابو شيخة

رجال ... ومواقف

الجزء الثاني

رجال ومواقف

بسم الله الرحمن الرحيم

« فاتحة لكل خير وتمام لكل نعمة »

رجال ... ومواقف

الجُزء الثاني

اعداد
فايز موسى أبو شيخة

مكتبة الفلاح
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

مكتبة الفلاح - الكويت
للنشر والتوزيع

شارع بيروت مقابل بريد حولي القديم
تلفون: ٢٦٤٧٧٨٤
ص.ب: ٤٨٤٨ الصفاة الرمز البريدي 13049 الكويت
برقيا: لغاتكو

فهرس الجزء الثاني

مقدمــة

الحمدلله مبدع كل شيء، له العزة والكبرياء، خلق الخلق وانزل عليهم الكتاب بالحق فيه عظات وعبر، والصلاة والسلام على البشير النذير محمد ﷺ خير البشر .

أما بعد، ،

لقد كان العرب أصحاب فطرة صافية، ومنهج واقعي في السلوك، استطاعوا أن يصوغوا القول الحكيم، وقلَّ أن تجد شاعراً لا ينطق بالحكمة التي تأتي في شعره عن غير قصد، أو خطيباً لا يهدي النفوس، ويقنع الخصوم، أو يدعو إلى مكرمة، وينفر من مذمة، ناصحاً يقدم لقومه ما ينفعهم، وينفرهم مما يضرهم، ويقدم لهم خلاصة التجارب التي خاضها في الحياة.

ولما جاء الإسلام وأشرقت شمس الهداية الربانية على هذه النفوس زادها صفاء في تفكيرها، واستقامة في لغتها، وتمسكاً بمكارم الأخلاق لقد اصطفى الله سيدنا محمد ﷺ، رسولاً للعالمين، وأنزل عليه قرآناً يهدي للتي هي أقوم، وحكمة يتمسك بها ويقتدى بها المسلمون قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء ١٣٣

وقال عليه الصلاة والسلام: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[١].

(١) رواه البخاري، صحيح الجامع الصغير رقم ٣٣٦٢.

وقد خلّف هؤلاء أقوالاً نادرة، وعظات بليغة، وأحكام فريدة، وقصص مؤثرة، اهتم بها الكتّاب والرواة، ولكن كلما اطلعت على هذه الكتب التي تجمع ذلك وجدت أنها ملئت بالغثّ والثمين، والجيد والرديء، والواقعي والخيالي. فاستعنت بالله، وقمت بجمع ما رأيتُه حسناً في بابه، ما يجد فيه القارىء نوراً يسطع في كل جوانب الحياة. يحض على الفضيلة، يدعو إلى مكارم الأخلاق.

وكل قصة من هذه القصص. توضح لنا جرأة بعض العلماء في قول الحق، وسلامة صدر بعض الأمراء والحكام في الانقياد لحكم الله، ومحافَظَة الصفوة من البشر على الوفاء والصدق والأمانة، والاستقامة، ورد الجميل.. الخ.

* * *

وكان رائدي في جمع هذه القصص هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى ـ على لسان سيدنا شعيب ـ عليه السلام بقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. هود ٨٨

* * *

وإني إذ أقدم هذا الكتاب إلى القراء آمل أن يتسع صدر القارىء فما وجَد فيه من أثر طيب فهو من الله، وما وجد فيه من أخطاء ـ فهي من غير قصد.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا يوم القيامة..

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

فايز أبو شيخة

٤٦

سليمان بن عبد الملك وأبي حازم

دخل سليمانُ[١] بن عبدالملك المدينة، فأقام بها ثلاثة، ثمَّ قال: أما هنا رجلٌ ممن أدرك أصحابَ رسول الله ﷺ يحدِّثنا؟ فقيل له: بلى، ها هنا رجل يقال له أبو حازم. فبعث إليه فجاءه.

فقال له سليمان بن عبدالملك: ياأبا حازم، ما هذا الجفاءُ؟ فقال له أبو حازم: وأيّ جفاء رأيتَ مني؟ قال له سليمان: أتاني وجوهُ أهل المدينة كلُّهم، ولم تأتني! فقال له: أعيذُك بالله أن تقول ما لم يكن، ما جرى بيني وبينك معرفة، آتيك هكذا؟ فقال سليمان: صَدَق الشيخ!.

ثُمَّ قال سليمان: ياأبا حازم، ما لنا نكرهُ الموت؟ فقال أبو حازم: لأنَّكم خرَّبتم آخرتَكم، وعَمَرْتُم دنياكم، فأنتم تكرهون أن تُنْقَلوا من العُمران إلى الخراب. قال: صدقت ياأبا حازم، كيف القدومُ على الله؟ فقال: أما المُحْسن فكالغائب يقدم على أهلِه، وأما المسيءُ فكالآبق[٢] يقدم على مولاه. فبكى سليمان، وقال: ليت شعري ما لنا عند الله ياأبا حازم! فقال أبو حازم: اعْرِضْ نفسك على كتاب الله عزَّ وجل تعلم ما لك عند الله، فقال: ياأبا حازم؛ نُصِيبُ تلك المعرفة في كتاب الله عزَّ وجل؟ قال أبو حازم: عند قوله تعالى:

(١) ارجع قصص العرب ٣٢٩.
(٢) الآبق: الهارب.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾. فقال سليمان: ياأبا حازم؛ فأين رحمةُ الله قال أبو حازم: قريبٌ من المحسنين.

قال سليمان: ياأبا حازم، مَنْ أحمق الناس؟ قال أبو حازم: من باع آخرتَه بدنيا غيره. فقال سليمان: ما أسمعُ دعاء الناس؟ قال: دعاءُ المخْبتين[1] إليه. قال سليمان: ما أزكى الصدقة؟ فقال أبو حازم: جهدُ المُقِلِّ. فقال سليمان: يا أبا حازم: ما تقول فيما نحن فيه؟ فقال أبو حازم: أَعْفنا مِن هذا؛ فقال سليمان: نصيحة بلَّغْتَها. قال أبو حازم: إنَّ أناسَاً أخذوا هذا الأمر من غير مشورة من المؤمنين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري ما قالوا، وما قيل لهم! فقال بعض جلسائه: بئس ما قلتَ ياشيخ! فقال أبو حازم: كذبتَ إن الله تبارك وتعالى أخذ على العلماء **ليبيننَّهُ للناس ولا يكتمُونه**، فقال سليمان: يا أبا حازم؛ كيف الأخذ بذلك؟ قال أبو حازم: تأخذه من حقه، وتضعه في أهله، فقال له سليمان: اصْحَبْنَا يا أبا حازم، تصيب منَّا ونصيب منك. فقال: أعيذُك من ذلك! قال سليمان: ولِمَ؟ قال: **أخاف أن أركَن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقَني الله منها ضعفَ[2] الحياة وضعف المماتِ!**.

قال سليمان: ياأبا حازم، فأَشِرْ عليَّ. فقال أبو حازم: اتَّقِ الله أن يراك حيثُ نَهاك، أو أن يفقدك حيثُ أمرَك. قال سليمان: ياأبا حازم، ادْعُ لنا بخير. فقال أبو حازم: اللهُمَّ إن كان سُليمان وليَّك فبشره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوَّك فخذ إلى الخير بناصيته، فقال سليمان: عِظْني يا أبا حازم، فقد أَوْجزت، فقال: إن كنت وليَّه فحسْبُك، وإن كنت عدوَّه فما ينفعُك إذا رمى بقوس بغير وتر.

---

(١) الإخبات: الخشوع.
(٢) أي ضعف العذاب حيّاً وميتاً.

فقال سليمان: ياغلام، إيت بمائة دينار، ثم قال: خذها ياأبا حازم، فقال أبو حازم: لا حاجَة لي بها، إني أخاف أن تكون قد أعطيتنيها لما سمعت من كلامي، إنَّ موسى عليه السلام لَمَّا هرب من فرعون وَوَرد ماء مَدْين، وجد عليه جاريتين تذودان، قال: ما خطْبُكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يُصْدِر الرِّعَاء[1] وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما، ثم تولى إلى الظل، فقال: ﴿**رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير**﴾ ولم يسأل على عَوْن الله أجراً على دينه، فلمَّا أنكر ذلك أبوهما، وقال: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً فسقى لهما، فما سمعتماه يقول؟ قالتا: سمعْناه يقول: رَبِّ إني لِمَا أَنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. فقال: ينبغي أن يكون هذا جائعاً؟ تنطلق إحداكما، فتقول له: إنَّ أبي يدعوك ليجزيك أجرَ ما سقيت لنا.

فجزع من ذلك موسى ـ عليه السلام ـ وكان طريداً في فيافي الصَّحراء، فأقبل والجارية أمامه، فهبَّت ريح، فكشفتها له ـ وكان ذا خُلُق ـ فلمَّا بلغ الباب، دَخَل، وإذا طعامٌ موضوع. قال شعيب: أصب يا فتى من هذا الطعام، قال موسى ـ عليه السلام: أعوذ بالله. قال شعيب: ولم؟ قال موسى: لأننا من بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً. قال شعيب ـ عليه السلام: لا والله لكنها عادتي وعادة آبائي، نطعم الطعام. ونقري الضيف، فجلس موسى فأكل.

فإن كانت هذه الدنانير عوضاً لما سمعتَ من كلامي، فأنا أرى أكلَ الميتةِ والدم في حال الضرورة أحبَّ إليَّ من أخذها.

فكأنَّ سليمان أعجب بأبي حازم، فقال لبعض جلسائه: ياأمير المؤمنين؛ أيسرُّك أن يكون الناس كلهم مثله! قال الزهري: إنه لجَاري منذ ثلاثين سنة ما كلمتُه بكلمة قط، قال له أبو حازم: صدقت، إنَّك نسيت الله فنسيتني، ولو أحببتَ الله لأحببتني، قال الزهري: أتشتمني؟ قال سليمان: أنت شتمتَ نفسك،

---

(١) الرعاء: الرعاة.

أما علمت أن للجار على جاره حقاً! قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لَمَّا كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تَضِنّ بدينها عن الأمراء، فاستغنت الأمراء عن العلماء، واجتمع القوم على المعصية، فشغلوا وانتكسوا، ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهن، لهابهم الأمراء. قال الزهري: كأنَّك لي تريد، وبي تعرض، قال: هو ما تسمع!.

مسامرات الأبرار: ١ ـ ١٧٤،
العقد الفريد: ٢ ـ ١٠٧، قصص العرب: ٢ ـ ٤٠٠.

٤٧

العهد لعمر بن عبد العزيز

كان لسليمانَ بن عبدالملك ابنٌ يقال له أيوب بن سليمان، فعقدَ له ولايةَ العهدِ من بعده، ثم إن أيوبَ تُوفِّي قبل سليمان، ولم يبقَ لسليمان إلّا ولدٌ صغير.

فلمّا حضرته الوفاةُ أراد أن يستخلفَ، فحضره عمرُ بنُ عبدالعزيز ورجاء ابن حيوة، فقال لرجاء: اعرض عليَّ ولدي في القُمُص والأرْدِية، فعرضهم عليه، فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القُمُص والأردية، يسحبونها سحباً. فنظر إليهم وقال: يارجاء؛

إن بَـنِـيَّ صِـبْـيَـةٌ صِـغَـارُ　　أَفْـلَحَ مَـنْ كـان لـه كِـبـارُ

فقال له عمر بن عبدالعزيز: ياأميرَ المؤمنين؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١). وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾.

ثم قال: يارجاء، اعرض عليَّ بَنِيّ في السيوف، فقلَّدُوهم السيوف، ثم عرضهم عليه، فإذا هم صِغار لا يحملونها، يجرُّونها جرّاً؛ فنظر إليهم وقال:

إن بَـنـيّ صـبْـيَـةٌ صَـيْـفِـيُّـونْ　　أَفْـلَح مِنْ كـانَ لَـهُ رِبْـعِيُّـونْ(٢)

(١) تزكي: تطهر من الشرك والمعاصي.

(٢) يقال: أصاف الرجل، إذا ولد له على كبر سنّه وولده صيفيون. وأربع الرجل: إذا ولد له في فتاء سنة، وولده ربعيون.

فقال له عمر بن عبدالعزيز: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾.

فلمَّا لم ير في ولده ما يُريد حدَّث نفسه بولايةِ عمر بن عبدالعزيز[1]؛ لِما كان يعرف من حَاله؛ فشاور رَجَاء فيمن يعْقِد له، فأشار عليه بعمر، وسدّد له رأيه فيه فوافق ذلك سليمان، وقال: لأعقدنَّ عقداً لا يكون للشيطان فيه نَصيب.

فلمَّا اشتدَّ به وَجَعُه عَهِدَ عَهداً لم يُطْلِعْ عليه أحداً إلاَّ رجاء بن حَيْوَةَ الكَنْديّ، استخلف فيه عمر بن عبدالعزيز، ويزيد بن عبدالملك من بعد عمر.

فدخل سعيدُ بن خالد مع عُمَر بن عبدالعزيز وبعضِ أهل بيته يعودون سليمان، فرأَوْا به الموت، فمشى عمر وسعيد بن خالد ورجاء بن حَيْوَة، ثمَّ تخلَّف عمر كأنَّه يعالج نَعْلَيْه، حتى أدركه رَجَاء، فقال له: يا رجاء، إني أرى أمير المؤمنين في الموت، ولا أحسبه إلاَّ سيَعْهَد، وأنا أُناشدك الله إن ذكرني بشيء من ذلك إلاَّ صَدَدْتَه عني، وإن لم يذكرني ألاَّ تذكري له في شيء من ذلك. فقال رجاء لعمر: لقد ذهب ظنُّك مذهباً ما كنتُ أحْسَبك تذهبه، أتظنُّ بني عبدالملك يدخلونك في أمورهم! وقد كان سليمان فَرغ من ذلك ولكنَّه أراد إخفاءَه عن عمر!.

فلمَّا احْتُضر[2] سليمان، واشتدَّ ما به أمر بالبيعة لِمَن كان في كتابه ممَّن عهد إليه فبايع الناس ولا يعلمونَ مَنْ في كتابه.

ثم قضى الله على سليمان بالموت، فلمَّا مات كتم موتَه رجاء بن حَيْوَة، ثم خرج إلى الناس فقال: إنَّ أمير المؤمنين يأمرُكم بتجديد البيعةِ لمن كان عهدَ إليه،

(١) هو الخليفة الصالح العادل، ولد بالمدينة ونشأ بها، وبويع له بالخلافة سنة ٩٩هـ. وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة توفى سنة ١٠١هـ.

(٢) احتضر: حضره الموت.

وقد أصبح بحمد الله صالحاً. فقالوا: أوصِلْنا إلى أمير المؤمنين لننظرَ إليه، ونُنَفِّذَ أمره، فدخل وأمر به فأسند بالوسائد وأقام عنده خادماً، وأمر بالناس فأُدخلوا عليه.

فيقفون عند الباب فيسلِّمون من بعيد، وهم يَرَوْنَ شخصه، فيردّ الخادم عنه رد المريض وهم ينظرون إليه.

ثم قال: يأمُركم أميرُ المؤمنين تُبَايعوا لمن عهد إليه، وتسمعوا له وتُطِيعوا، فخرجوا إلى المسجد والناسُ مجتمعون: وجوهُ بني مَرْوَانَ وبني أمية، وأشرافُ الناس، فبايعوا، حتى إذا رضى رَجَاء من ذلك نظر فإذا هو لا يرى عمر؛ فخرج يلتمسُه في المسجد حتى رآه قاصياً، فوقف عليه، وقال: السلام عليك يأمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته! قُمْ إلى المنبر، فقال: أنشدك الله يا رَجَاء، فقال رجاء: أناشدك الله أن يضطربَ بالناس حَبْل، فقد لقي سليمانُ رَبَّه، وقضى الله عليه بالموت.

فقام عمر حتى جلس على المنبر فنعى للناس سليمان، وفتح الكتاب، فإذا فيه استخلاف عمر ويزيد بن عبدالملك من بعد عمر.

فلمَّا قرَأَ ذِكْرَ عمر جَثَا هشام بن عبدالملك على ركبتيه وقال: هاهْ[1]! فَسَلَّ رجلٌ من أهل الشام سَيْفَه، وقال: تقول لأمرٍ قد قَضَاه أمير المؤمنين هاهْ؟ فلمَّا قرأ: «ثم يزيد بن عبدالملك من بعد عمر» قال هشام: سمعنا وأَطَعْنا. فسمع الناس وأطاعوا، وقاموا فبايعوا لِعُمَر.

سيرة عمر بن عبدالعزيز: ٢٩،
قصص العرب: ٣ - ٤٩.

(١) هاه: وعيد.

٤٨

عمر بن عبد العزيز
يحمل الناس على الحق

لَمَّا دُفِنَ سليمان، وقام عمر بن عبدالعزيز قُرِّبَتْ إليه المراكب، فقال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تُرْكَب قط يركبُها الخليفة أولَ ما يلي. فتركها وخرج يلتمسُ بَغْلَتَه، وقال: يامُزاحِم؛ ضُمّ هذه إلى بيت مالِ المسلمين.

ونُصِبت له سُرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحدٌ قط، كانت تضرب للخليفة أولَ ما يلي: فقال: ما هذه؟ فقالوا: سُرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفةُ أولَ ما يَلِي. قال: يامُزاحم، ضُمَّ هذه إلى أموال المسلمين. ثم ركب بَغْلته، وانصرف إلى الفُرُش والوِطَاء[1] الذي لم يجلس عليه أحد قط والذي يفرش للخليفة أوَّل ما يكون، فجعل يَدْفَعُ ذلك برجله حتى يُفْضي إلى الحصير. ثم قال: يا مزاحم، ضُمّ هذا لأَمْوَال المسلمين.

وبات عِيالُ سليمان يُفرِغُون الأدهان والطيب، من هذه القارورة إلى تلك القارورة، ويلبسون ما لم يُلْبَس من الثياب حتى تتكسَّر ـ وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب، أو مسَّ من الطيب كان لولده، وما لم يُلْبَس من الثياب وما لم يُمَس من الطيب فهو للخليفة بعده.

---

(١) الوطاء: ضدُّ الغطاء.

فلمّا أصبح عمر قال له أهلُ سليمان: هذا لك وهذا لنا. قال: وما هذا، وما هذا؟ قالوا: هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومسَّ من الطِّيب وهو لولده، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده، وهو لك.

قال عمر: ما هذا لي، ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يامزاحمُ؛ ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين.

فتآمر الوزراء فيما بينهم، فقالوا: أمَّا المراكبُ والسرادقات والحُجَر والشُّوَار[1] والوِطَاء فليس فيه رَجَاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتُم، وبقيت خَصلة وهي الجواري، نعرضهنَّ فعسى أن يكون ما تريدون فيهنَّ؛ فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده. فأُتي بالجواري فعُرِضْن عليه كأمثال الدُّمَي؛ فلمَّا نظر إليهِّن جعل يسألهنَّ واحدةً واحدةً، مَنْ أنتِ؟ ولمن كنت؟ ومن بعث بكَ؟ فتخبره الجاريةُ بأصلها، ولمن كانت، وكيف أخذت، فيأمر بردِّهنَّ إلى أهلهنَّ ويُحمَلْن إلى بلادهنَّ، حته فرغ منهنَّ. فلما رأوا ذلك أيِسوا منه، وعلموا أنَّه سيحملُ الناسَ على الحق.

واحتجب عَنِ الناس ثلاثاً، لا يدخلُ عليه أحد، ووجوهُ بني مَرْوَان وبني أميَّة، وأشرافُ الجنود والعرب، والقوادُ ببابه، ينظرون ما يخرجُ عليهم به، **فجلس للناس بعد ثلاث، وحملهم على شريعةٍ من الحق فعرفوها؛ فردَّ المظالم، وأحيا الكتاب والسُّنَّة، وسار بالعدل، ورفض الدنيا، وزهد فيها، وتجرَّد لإحياء أمر الله عزَّ وجل، فلم يزل على ذلك حتى قُبِضَ[2].**

سيرة عمر بن عبدالعزيز: ٣٥،
قصص العرب: ٣ - ٥٣.

---

(١) الشوار: اللباس والزينة ومتاع البيت.
(٢) مات.

(٤٩)

بنو أمية وعمر بن عبد العزيز

لَمَّا أقبلَ عمرُ بن عبدِالعزيز على ردِّ المظالم، وقَطَعَ عن بني أميَّة جوائزَهم وأرزاقَ أحْرَاسهم، وردَّ ضِياعَهم إلى الخراج، وأبطل قطائعهم فأفْقَرهم، ضَجُّوا من ذلك؛ فاجتمعوا إليه وقالوا: إنَّك قد أجْلَبْتَ(١) المال للمسلمين، وأفقرت بني أبيك فيما تردُّ من هذه المظالم؛ وهذا أمرٌ قد ولِيَه غيرُك قبلك، فدعْهم وما كانَ منهم، واشتغل أنت وشأنك، واعملْ بما رأيت.

قال لهم: هذا رأيُكم؟ قالوا: نعم! قال: ولكني لا أرى ذلك، والله لَودِدْتُ ألَّا تبقَى في الأرض مَظْلِمةٌ إلا ردَدْتها!.

فخرجوا من عنده، ودخلوا على عمر بن الوليد بن عبدالملك ـ وكان كبيرهم وشيخَهم ـ فسألوه أن يكتبَ إلى عمرَ يوبِّخُه لعلَّه أن يردَّه عن مَساءَتهم، فكتب إليه:

«أما بعد فإنك أَزْرَيتَ(٢) على من كان مِنْ قبلك من الخلفاء، وعبت عَليهم، وسِرْت بغيرِ سيرتهم وسميتَها المظالمَ؛ نقصاً لهم، وعيباً لأعمالهم، وشنآناً لمن كان بعدَهم من أولادهم، ولم يكن ذلك لك، فقطَعْتَ ما أمرَ الله به أن

---

(١) أجلب: طلب.
(٢) أزري عليه: عابه.

يُوصَل، وعملت بغير الحقّ في قرابتك، وعمَدتَ إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم، فأدْخَلْتَها بيتَ مالِكَ ظلماً وجَوراً وعُدْوَاناً، فاتَّقِ الله يابْنَ عبدالعزيز وراقِبْه؛ فإنك إن شططتَ لم تطمئنَّ على منْبَرك، وإن خَصَصْت ذوي قرابتك بالقطيعة والظلم؛ فوالله الذي خَصَّ محمداً ﷺ بما خصَّه به من الكرامةِ، لقد ازْدَدْت من الله بُعْداً في ولايتك هذه التي تزعمُ أنها بلاءٌ عليك وهي كذلك! فاقصد في بعض مَيْلك وتحامُلك. اللهم فاسأل سليمان[1] بن عبدالملك بما صنع بأمةِ محمد ﷺ!».

فكتب عمر بن عبدالعزيز إليه:

«من عمر أمير المؤمنبن إلى عمر بن الوليد. سلام على من اتَّبَع الهدى، أمَّا بعد فإنَّ أول أمرك يافلان أنَّ أمك بُنَانَة كانت أمةً تدخل دُورِ حمْص، وتطوف في جوانبها، والله أعلم بها، فاشْتَراها ذُبيان بن ذِبيان من فَيْء المسلمين، فأهداها إلى أبيك فحملتْ بك، فبئس الحامل وبئس المحمول، ثم نشأتَ فكنتَ جبَّاراً شَقِيّاً. كتبتَ إليَّ تُظَلِّمُني[2]، وزعمتَ أنَّ حُرْمَتَك وأهلَ بيتِك في بيتِ مال المسلمين، الذي فيه حق القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل، وإنَّما أنت كأحدهم؛ لك ما لهم، وعليك ما عَليهم».

وإنَّ أظلَمَ مني، وأتركَ لعهد الله، الذي استعملك صبيّاً سفيهاً تَحْكُمُ في دماء المسلمين وأموالهم برأيك، ولم يكن يحمله على ذلك إلَّا حبُّ الولد، ولم يكن ذلك له ولا حقَّ له فيه، فويلك ثم ويل أبيك! ما أكْثَرِ طلَّابكما وخُصماءَكما يومَ القيامة! وكيف النجاةُ لمن كثر خصماؤه»؟.

(١) سليمان بن عبدالملك هو الذي عهد إلى عمر بين عبدالعزيز بالخلافة.
(٢) ظلمه: نسب الظلم إليه.

«وإنَّ أَظَلم مني وأَتركَ لعهد الله مَنْ جعل لفلانة البربرية سهماً في فَيْء المسلمين «وصدقاتهم. أَهَاجَرَتْ؟ ثكلَتْك أمك! أم بايعت بيعة الرضوان فَتَسْتَوْجب سهام المقاتلين»!.

«وإن أظلمَ مني وأترِكَ لعهد الله من استعمل قُرَّة بن شَريك أعرابياً حلفاً جافياً على مصر، وأذن له في المعازف والبرابط[1] والخمر.

«وإنَّ أَظْلَم مني وأتركَ لعهد الله من وَلَّي يزيد بن أبي مسلم[2] على جميع المغرب، يَجْبي المالَ الحرام، وَيَسْفِك الدم الحرام. رويدك! لو قد التقتْ عليك حَلْقتَا البطانِ[3]، وطالت بي حياة، وردَّ الله الحقَّ إلى أهله، تفرغتُ لك ولأهل بيتك، فأقمتكم على المحجةِ[4] البيضاء؛ فطالما تركتم الحق وراءكم، وأخذتم في بَنّيات الطريق[5]، ومن وراء هذا ما أرجو أن يكونَ خيرَ رَأي رأيتُهُ؛ بيعُ رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل. فإنَّ لكلِّ مسلمٍ فيك سهماً في كتاب الله، والسلامُ على من اتَّبع الهدى، ولا ينالُ سلامُ الله الظالمين».

سيرة عمر بن عبدالعزيز: ١٥٢، قصص العرب: ٢ ـ ٤٠٩.

---

(١) البرابط: جمع بربط وهو العود.

(٢) ولِّي الوليد بن أبي مسلم على ثلاثة أخماس المغرب، يقتل ويصلب ويقطع.

(٣) البطان: حزام الرحل، له حلقتان في كل طرف حلقة يصعب التقاؤهما، وإذا التقتا بلغ الشدُّ غايته، وهو مثل يضرب حين بلوغ الشدَّة منتهاها.

(٤) المحجَّة: جادة الطريق.

(٥) بنيات الطريق: الطرق الصغار تتشعَّب من الجادة.

٥٠

الولد سر أبيه

كان بيدِ عُمَر بن عبدالعزيز قبل الخلافة ضَيْعَتُه المعروفة بالسَّهلة، وكانت باليمامة. وكانت لها غَلَّةٌ عظيمة كثيرة، عَيْشُه وعيشُ أهله منها.

فلمَّا وَلِيَ الخلافة قال لمُزَاحم مولاه: إني عزمتُ أن أردَّ السَّهلة إلى بيت مال المسلمين. فقال مُزاحم: أتدري وَلَدُكَ؛ إنهم كذا وكذا!

فَذَرَفتْ عيناه، فجعل يمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى، ويقول: **أَكِلُهم إلى الله، أَكِلُهم إلى الله.**

فمضى مُزاحم، فدخل على عبدالملك ابنه، فقال له: ألا تَعْلَمُ ما قد عزم عليه أبوك، إنه يريدُ أن يردَّ السَّهْلَة. قال: فما قلتَ له؟ قال: ذكرتُ له ولدَه؛ فجعل يَسْتَدْمع ويمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى، ويقول: أكِلُهم إلى الله.

فقال عبدالملك: بئسَ وزيرُ الدين أنت! ثمَّ وَثَب وانطلق إلى أبيه، فقال للآذن: استأذن لي عليه. فقال: إنه قد وضع رأسه الساعة للقائلة(١). فقال: استأذنْ لي عليه. فقال: أما ترحمونَه؟ ليس له من الليل والنهار إلَّا هذه الساعة. قال: استأذِنْ لي عليه، لا أُم لك!.

---

(١) القائلة: نصف النهار، والنوم في الظهيرة.

فسمع عمر كلامهما، فقال: ائذن لعبدالملك، فدخل فقال: عَلَامَ عزمتُ قال: أردّ السّهلة! قال: فلا تؤخِّرْ ذلك. قم الآن، فجعل عمر يرفعُ يديه، ويقول: الحمد لله الذي جعلَ لي من ذرِّيتي من يُعينني على أمر ديني. نعم يابنيّ، أصلِّي الظهر، ثم أصعد المنبر، فأردّها علانية على رؤوس الناس.

قال: ومَن لك أن تعيشَ إلى الظهر، ثم من لك أن تَسْلَمَ نِيَّتُك إلى الظهر إن عشتَ!.

فقام عمر، فصعد المنبر وخطب الناس، وردَّ السَّهْلَة.

ابن أبي الحديد: ٤ ـ ١٤٧،
قصص العرب: ٣ ـ ٥٧.

٥١

الشمعة والسراج

وفد على عمرَ بن عبدالعزيز بَريدٌ[١] من بعضِ الآفاق، فانتهى إلى بابِ عمر ليلاً؛ فقرع البابَ، فخرج إليه البوّاب، فقال: أَعْلِمْ أميرَ المؤمنين أنَّ بالباب رسولاً من فلان عامِله؛ فدخل فأَعْلم عُمَر ـ وقد كان أراد أن ينام ـ فقعد، وقال: إئذنْ له!.

فدخل الرسولُ فدعَا عمرُ بشَمْعَة غليظةٍ فأجّجَتْ ناراً، وأُجْلِس الرسول، وجلس عمر، فسأله عن حال أهل البلد ومَنْ بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرةُ العامل؟ وكيف الأسعارُ؟ وكيف أبناءُ المهاجرين والأنصار، وأبناء السبيلِ والفقراء؟ وهل أَعْطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه؟ وهل له شاكٍ؟ وهل ظَلَم أحداً؟.

فأَنْبَأه بجميع ما عَلِم من أمرِ تلك المملكة، يسأله فيُحْفِي[٢] السؤال، حتى إذا فَرَغَ عمرُ من مَسْأَلته قال له: ياأمير المؤمنين، كيف حالُك في نفسك وبَدَنك؟ وكيف عِيالك وجميع أهل بيتك ومن تُعْنِي بشأنه؟ فنفخ عمر الشمعة فأَطْفَأَها بنَفْخِته، وقال: ياغلام، عليَّ بسراجٍ، فأتي بفَتيلة لا تكاد تضيء، فقال: سَلْ عمَّا أحببتَ، فسأله عن حاله، فأخبره عن حال ولده وأهل بيته.

---

(١) رسول.

(٢) أحفى سؤاله: ردده.

فعجب البريدُ للشمعة وإطفائِه إياها، وقال: ياأمير المؤمنين، رأيتُك فعلتَ أمراً ما رأيتُك فعلتَ مثله! قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إيَّاك عن حالك وشأنِك. فقال: يا عبدالله، إنَّ الشمعةَ التي رأيتَني أطْفأْتُها من مالِ الله ومال المسلمين، وكنت أسألُك عن حوائجهم وأمرهم، فكانت تلك الشَّمْعةُ تَقِدُ بين يديَّ فيما يُصلحهم، وهي لهم فلمَّا صرتَ لشأني وأمْرِ عيالي ونفسي أطفأتُ نار المسلمين!.

سيرة عمر بن عبدالعزيز: ١٦١،
قصص العرب: ١ ـ ٢٣٨.

٥٢

حديث عمر بن عبدالعزيز مع ابنه عبدالملك

كان عبدُالملك بن عبدالعزيز مِنْ أَحَبِّ الناسِ إلى أبيه، فمرض فاشتدَّ مرضُه، فأُخبر أبوه بذلك، فأتاه فوقف عليه، وقال: يابُني! كيف تجدك؟ قال: أجِدُني صالحاً ـ وكتمه ما به كراهةَ أن يَغُمَّه ـ قال: يابني، اصدُقْني عن نفسك، فإنَّ أحبَّ الأمور إليَّ فيك لموضعُ القضاء. قال: أجِدُني ياأبتِ أموت! فولّى عمر إلى قِبْلَته، فبينما هو في صلاته إذ مات عبدالملك، فأتاه مُزاحم، فقال: يا أمير المؤمنين؛ تُوُفِّي عبدُالملك فخرَّ مغشيّاً عليه.

فلمّا دُفِن عبدالملك قال مزاحم ـ وكان قد عهد إليه إذا رأى منه أمرين مختلفين أن يخبرَه بذلك: ياأمير المؤمنين، رأيتُ منك عَجَباً، أتيتَ عبدَالملك فسألتَه عن حالة فكَتَمك ما به فقلتَ له: يابني، اصدقني عن نفسك، فإن أحبَّ الأمور إليَّ فيك لموضع القضاء؛ فأخبرك أنه يموت. فلمّا مات خررتَ مَغشيّاً عليك. قال: قد كان ذلك يا مُزاحم! فقد علمتُ أنَّ مَلَكَ الموت قد دخل إلى منزلي؛ فأخذَ بَضْعَةٍ مني، فراعني ذلك فأصابني ما قد رأيت!.

سيرة عمر بن عبدالعزيز: ١٦١.

٥٣

أعطيك مالي إن شئت

لما وَلِيَ عمرُ بن عبدالعزيز أتتْ عمَّةٌ له إلى فاطمة امرأتِه؛ فقالت: أني أريدُ كلامَ أمير المؤمنين. قالت لها: اجلسي حتى يفرُغ؛ فجلست، فإذا بغُلام قد أَتَى فأخَذَ سراجاً. فقالت لها فاطمة: إن كنتِ تريدينه فالآن، فإنه إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع، وإذا صار في حاجةِ نفسه دعا بسراجه.

فقامَت فَدَخَلت عليه فإذا بين يديه أقراصُ وشيءٌ من ملح وزيت وهو يتعشَّى، فقالت: يا أمير المؤمنين: أتيتُ لحاجةٍ لي، ثم رأيتُ أن أبدأ بك قبل حاجتي! قال: وماذاك ياعمَّة؟ قالت: لو اتخذتَ لك طعاماً ألَين من هذا؟ قال؛ ليس عندي ياعمَّة، ولو كان عندي لفعلتُ! قالت: ياأميرَ المؤمنين، كان عَمُّك عبدُالملك يُجري عليَّ كذا وكذا، ثم كان أخوك الوليد فزادني؛ ثم كان أخوك سليمان فزادني، ثم وَلِيت أنت فقطعتَه عني.

قال: ياعمة؛ إن عمِّي عبدَالملك، وأخي الوليد، وأخي سليمان كانوا يعطونك من مالِ المسلمين، وليس ذلك المالُ لي فأعطيكه؛ ولكني أعطيكِ مالي إن شئت! قالت: وماذاك ياأمير المؤمنين؟ قال: عطائي مائتا دينار؛ فهل لك فيه؟ قالت: وما يبلغ عَطاؤك؟ قال: فَلسْتُ أملِكُ غيرَه ياعمة؛ فانصرفت عنه!

سيرة عمر بن عبدالعزيز: ٦٤،

قصص العرب: ١ ـ ٢٣٧.

٥٤

جابر عثرات الكرام

كان في أيام سليمان بن عبدالملك رجل يقال له خزيمة بن بشر من بني أسد مشهور بالمروءة والكرم والمواساة وكانت نعمته وافرة فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يواسيهم ويتفضل عليهم فواسوه حيناً ثم ملُّوه فلمّا لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمّه فقال لها يابنت العم قد رأيت من إخواني تغيُّراً وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت ثم أغلق بابه عليه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفذ وبقي حائراً في حاله.

وكان عكرمة الفياض والياً على الجزيرة فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر فقال عكرمة ما حاله فقالوا صار في أسوأ الأحوال وقد أغلق بابه ولزم بيته فقال عكرمة الفياض وما سمي الفياض إلاَّ للافراط في الكرم فما وجد خزيمة بن بشر مواسياً ولا مكافئاً فأمسك عن ذلك.

فلمّا كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد ثم أمر بإسراج دابته وخرج سراً من أهله فركب ومعه غلام واحد يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فطرقه بنفسه فخرج خزيمة فقال له إصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلاً فوضعه وقبض على لجام الدابة وقال له من أنت جعلت فداك، قال له ما جئت في هذا

الوقت وأريد أن تعرفني قال خزيمة فما أقبله أو تخبرني من أنت قال أنا جابر عثرات الكرام قال زدني قال لا، ثم مضى .

ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها أبشري فقد أتى الله بالفرج فلو كان في هذا فلوس كثيرة قومي فاسرجي قالت لا سبيل إلى السراج فبات يلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير. ورجع عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفرداً فارتابت وشقَّت جيبها ولطمت خدَّها فلمَّا رآها على تلك الحالة قال لها ما دهاك ياابنة العم قالت سوء فعلك بابنة عمك، أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة من الليل منفرداً عن غلمانه في سر من أهله إلَّا إلى زوجة أو سرية فقال: لقد علم الله ما خرجت لواحدة منهما، قالت لابد أن تعلمني قال فاكتميه إذن، قالت أفعل، فأخبرها بالقصَّة على وجهها ثم قال أتحبين أن أحلف لك قالت لا قد سكن قلبي.

ثم أصبح خزيمة صالح غرماءه وأصلح من حاله ثم تجهز يريد سليمان بن عبدالملك بفلسطين فلمَّا وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهوداً لمروءته وكان الخليفة به عارفاً فأذن له فلمَّا دخل عليه وسلَّم بالخلافة قال ياخزيمة، ما أبطأك عنَّا فقال سوء الحال ياأمير المؤمنين قال فما منعك من النهضة إلينا قال ضعفي، قال فمن أنهضك؟ قال لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة، من الليل إلَّا ورجل يطرق بابي وكان منه كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها فقال هل عرفته قال لا والله لأنه كان متنكراً وما سمعت منه إلَّا **جابر عثرات الكرام** قال فتلهَّف سليمان بن عبدالملك على معرفته وقال لو عرفناه لأعنَّاه على مروءته ثم قال عليَّ بقناة فأتى فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل عطاياه وأمره بالتوجه إلى الجزيرة.

فخرج خزيمة متوجهاً إليها فلمَّا قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلَّم عليه ثم سارا جميعاً إلى أن دخلا البلد فنزل خزيمة في دار الإمارة وأمر أن

يؤخذ عكرمة وأن يحاسب، فحوسب ففضل عليه مال كثير فطلبه خزيمة بالمال فقال مالي إلى شيء منه سبيل فأمر بحبسه ثم بعث يطالبه فأرسل إليه إني لست ممن يصون ماله لعرضه فاصنع ما شئت فأمر به فكبِّل بالحديد وضيق عليه وأقام على ذلك شهراً فأضناه ثقل الحديد وأضَرَّ به وبلغ ذلك ابنة عمِّه فجزعت عليه واغتمَّت ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت امضي الساعة إلى باب هذا الأمير فقولي عندي نصيحة فإذا طلب منك قولي لا أقولها إلا للأمير خزيمة فإذا دخلت عليه سليه الخلوةَ فإذا فعل قولي له ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد قال ففعلت ذلك.

فلمَّا سمع خزيمة قولها قال واسوأتاه جابر عثرات الكرام غريمي! قالت نعم فأمر من وقته بدابته فأسرجت وركب إلى وجوه أهل البلد فجمعهم وسار بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض في قاع الحبس متغيراً قد أضناه الضير فلمَّا نظر عكرمة إلى خزيمة وإلى الناس احشمه ذلك فنكس رأسه فأقبل خزيمة حتى انكبَّ على رأسه فقبَّله فرفع رأسه إليه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعلك وسوء مكافأتي قال يغفر الله لنا ولك ثم أمر بِفك قيوده وأن توضع في رجليه فقال عكرمة تريد ماذا؟ قال: أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله أن لا تفعل فخرجا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة فودَّعه عكرمة وأراد الانصراف فلم يمكنه من ذلك قال وما تريد قال أغير من حالك، وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فأخلى ودخلا جميعاً ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرج فخلع عليه وحمل إليه مالاً كثيراً ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه فأذن له فاعتذر لها وتذمم من ذلك ثم سأله أن يسير معه إلى أمير المؤمنين وهو يومئذٍ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك.

فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبدالملك فدخل الحاجب فأخبره

بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال والي الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ما هذا إلاَّ لحادث عظيم فلمَّا دخل عليه قبل أن يسلِّم ما وراءك يا خزيمة قال خيرٌ ياأمير المؤمنين قال فما أقدمك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك لما رأيت من شوقك إلى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض فأذن له في الدخول فدخل فسلَّم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال يا عكرمة كان خيرك له وبالاً عليك ثم قال اكتب حوائجك وماتختاره في رقعة فكتبها وقضيت على الفور ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف إليها من التحف والطرف ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وقال له أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال بل أردده إلى عمله يا أمير المؤمنين ثم انصرفا جميعاً ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبدالملك مدَّة خلافته.

المستطرف: ١ - ٢١٣.

٥٥

أفضل ما يخلف المرء لعقبه صديقا وفيا

حدَّثني أبو القاسم الجُهنيّ[1]، قال:

كُنْتُ بحضرة أبي الحسن بن الفرات[2]، وابن الجصَّاص[3] حاضر، فتذاكروا ما يعتقده الناسُ لأولادهم.

فقال: ابن الفرات: ما أجلّ ما يعتقده الناس لأعقابهم؟

فقال بعض من حضر: الضياع.

وقال بعضهم: العقار[4].

وقال آخرون: المال الصامْت[5].

وقال آخرون: الجواهر الخفيفة الثمن، فإنَّ بني أُميَّة سئلوا: أي الأموال كانت أنفع لكم في نكبتكم؟ فقالوا: الجوهر الخفيف الثمن، كنًّا نبيعه، فلا نطالب بمعرفة، ولا يتنبّه علينا به، والواحدة منه أخفّ محملاً من ثمنها، وابن الجصَّاص ساكت.

(١) أبو القاسم الجهني: راجع حاشية القصة ١٢/١ والقصتين ٥١/٢ و ٥٢ من النشوار.
(٢) الوزير أبو الحسن بن الفرات: حاشية القصة ٩/١ من النشوار.
(٣) ابن الجصاص: راجع القصص ٧/١ و ٨/١ و ٩/١ من النشوار.
(٤) العقار: ما أصل وقرار كالأرض والدار.
(٥) المال الصامت: هو الذهب والفضة.

فقال له ابن الفرات: كالمستهزىء به: ما تقول أنت يا أبا عبدالله؟

فقال: أجلّ ما يعتقده الناس لأولادهم، الصنائع والإخوان، فإنَّهم إن اعتقدوا لهم ضياعاً أو عقاراً أو صامتاً من غير اخوان ضاع ذلك وتمحَّق، وأحدّث الوزير أعزّه الله بحديثٍ جرى منذ مدَّة، يعلم معه صدق قولي.

فقال له ابن الفرات: ماهو؟

فقال: الناس يعلمون أنِّي صنيعة أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون[1]، وكان رجلاً مستهتراً بالجوهر[2]، يعتقده لنفسه، وأولاده، وجواريه.

فكنت جالساً يوماً في داري، فجاءني بوَّابي، فقال: بالباب إمرأة تستأذن، في زيّ رثّ، فأذنت لها، فدخلت، فقالت لي؛ تخلي لي مجلسك، فأخليته.

فقالت لي: أنا فلانة، جارية أبي الجيش.

فحين قالت ذلك، ورأيت صورتها، عرفتها، وبكيت لما شاهدتها عليه، ودعوت غلماني ليحضرو لي ما أغيّر به حالها.

فقالت: لا تَدْعُ أحداً، فإنِّي أظنُّك دعوتهم لتغيير حالي، وأنا في غنية وكفاية، ولم أقصد لذلك، ولكن لحاجة هي أهمّ من هذا.

فقلت: ما هي؟

فقالت: تعلم إنَّ أبا الجيش، لم يكن يعتقد لنا إلاَّ الجوهر. فلما جرى علينا بعده من طلب السلطان، ما جرى، وتشتَّتنا، وزال عنَّا ما كنَّا فيه، كان عندي جوهر قد سلَّمه إليَّ، ووهبه لي، ولابنته منِّي فلانة، وهي معي ها هنا.

---

(١) أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون: ترجمته في حاشية القصة ١٦٤/٢ من النشوار.
(٢) استهتر الرجل بكذا: أولع به لا يتحدَّث بغيره ولا يفعل غيره.

فخشيت أن أظهره بمصر فيؤخذ مني، فتجهزّت للخروج، وخرجت على هيأة زريَّة، مستخفية، وابنتي معي، فسلَّم الله تعالى، ووصلنا هذا البلد، وجميع ما لنا سالم.

فأخرجت من الجوهر شيئاً، قيمته على أبي الجيش خمسة آلاف دينار وصرت به إلى سوق الخرَّازين[1] فبلغ ألفي دينار.

فقلت: هاتم.

فلما أحضروا المال، قالوا: أين صاحب المتاع؟

قلت أنا هي.

قالوا: ليس محلّك أن يكون هذا لك، وأنت لصَّة، فتعلَّقوا بي وجذبوني، ليحملوني إلى صاحب الشرطة.

فخشيت أن أقع في يده فأعرف، فيؤخذ الجوهر، وأُطالب أنا بمال، فأخرج الباقي.

فرشوت القوم بدنانير يسيرة كانت معي، وتركت الجوهر عليهم وأفلتّ.

فما نمت ليلتي غمّاً على ما ذهب، وخشية الفقر، لأنَّ مالي هذا سبيله، فأنا غنيَّة فقيرة، فلم أدر ما أفعل.

فذكرت كونك ببغداد، وما بيننا وبينك، فجئتك، والذي أُريده منك جاهك، تبذله لي، حتى تتخلَّص لي ما أخذ مني، وتبيع الباقي، وتحصِّل لي ثمنه مالاً، وتشتري به لي ولابنتي عقَاراً، نقتات من غلَّته.

قال: فقلت: من أخذ منك الجوهر؟

فقالت: فلان.

---

(١) سوق الخرازين: هو ما يسمى اليوم سوق الجوهريين.

فأحضرته، فجاءني، فاستخففت به[١]، وقلت: هذه امرأة من داري، وأنا أنفذتها بالمتاع لأعرف قيمته، ولئلا يراني الناس أبيع شيئاً بدون قيمته، فَلِمَ تَعرَّضتم لها؟

فقال: ما علمنا ذلك، ورسمنا ـ كما تعلم ـ لا نبيع شيئاً، إلاَّ بمعرفة، ولما طالبناها بذلك اضطربت، فخشينا أن تكونَ لصَّة.

فقلت له: أريد الجوهر الساعة، فجاءني به، فلما رأيته عرفته، وكنت أنا أشتريته لأبي الجيش بخمسة آلاف دينار.

فأخذته منهم، وصرفتهم.

وأقامت المرأة في داري، ونقلت ابنتها إليَّ، وأخرجت الجوهر، فألَّفته عقوداً، وعرضته، وتلطفت لها في بيعة بأوفر الأثمان، فحصل لها منه أكثر من خمسين ألف دينار.

فابتعت لها بذلك ضياعاً وعقاراً ومسكناً، فهي تعيش به وولدها إلى الآن.

فنظرت، فإذا الجوهر لَّما كان معها بلا صديق، كان حجراً، بل كان سبباً لمكروه يجري عليها، وقد رشت على الخلاص منه دنانير، ولما وجدَتْ صديقاً يعينها، حصَّل لها منه هذا المال الجليل.

فالصديق أفضل العقد[٢].

فقال ابن الفرات: أجدتَ يا أبا عبدالله.

---

(١) استخف به: ترد بمعنى كلمه مستهيناً به.

(٢) العقد: مفردها عقدة، والعقدة ما يمتلكه الإنسان من ضيعة أو عقار.

ثم قال لنا: الناس ينسبون هذا الرجل إلى الغفلة، وقد سمعتم ما يقول، فكيف يكون مثل هذا مغفَّلاً[1]؟.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ٢ ـ ٣٦.

(١) وردت في كتاب أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي: ٥٦.

٥٦

ابن الجصاص التاجر
يبقى له من بعد المصادرة مليون دينار

سَمِعْتُ الأميرَ أبا محمد، جعفر بن ورقاء، بن محمد بن ورقاء الشيباني(١)، يحدِّث في سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، قال:

اجتزت بابن الجصَّاص، بعد إطلاقه إلى داره من المصادرة بأيَّام، وكانت بيننا مودَّة ومصاهرة، فرأيته على روشن داره، على دجلة، في وقت حار، من يوم شديد الحرّ، وهو حافٍ حاسر، يعدو من أوَّل الروشن إلى آخره، كالمجنون.

فطرحت طيَّاري(٢) إليه، وصعدت بغير إذن، فلما رآني استحيا، وعدا إلى مجلس له.

فقلت له: ويحك ما لك، ما الذي قد أصابك؟

---

(١) أبو محمد جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني: أمير من أمراء الدولة، من بيت إمرة وتقدم وأدب، ولد بسامراء سنة ٢٩٢ وتوفي سنة ٣٥٢، وتقلد عدَّة ولايات، وكان المقتدر يجريه مجرى بني حمدان، وكان شاعراً، كاتباً، جيد البديهة (الأعلام ١٢٣/٢)، (راجع القصة ٣٤/١ من النشوار).

(٢) الطيار: نوع من السفن، يدل اسمه على أنه سريع الجريان، قال جحظة البرمكي يعاتب وزيراً:

قل للوزير أدام الله دولته ... اذكر منادمتي والخبز خشكار
إذ ليس بالباب برذون لدولتكم ... ولا غلام ولا في الشط طيار

راجع ما كتبه أحمد تيمور في مجلة المجمع العلمي العربي م٢ ج١١. وكذلك تجارب الأمم ٢٦٨/١.

فدعا بطستْ وماء، فغسل وجهه ورجليه، ووقع ساعة كالمغشيِّ عليه، ثم قال: أولا يحقّ لي أن يذهب عقلي، وقد خرج من يدي كذا، وأُخِذَ منّي كذا، وجعل يعدِّد أمراً عظيماً ممَّا خرج منه، فمتى أطمع في خلفه، ولِمَ يذهب عقلي أسفاً عليه؟.

فقلت له: يا هذا إنَّ نهايات الأموال غير مدركة، وإنَّما يجب أن تعلم أنَّ النفوس لا عِوَضَ لها، والعقول والأديان، فما سلم لك ذلك، فالفَضْلُ معك، وإنَّما يقلق هذا القلق، من يَخافُ الفقر، وما جرى مجرى ذلك، أو النقصان في جاهٍ، فاصبر، حتى أُواقِفَكَ أنَّه ليس ببغداد اليوم، بعد ما خرج منك، أيس منك من أصحاب الطيالس.

فقال: هات.

فقلت: أليسَ دارك هذه، هي التي كانت قبل مصادرتك، ولك فيها مِنَ الفَرْشِ والأثاث ما فيه جمال لك، وإن لم تكن في ذلك الكبر المفرط؟

فقال: بلى.

فقلت: وقد بقي لك عقارك بالكرخ، وقيمته خمسون ألف دينار.

فقال: بلى.

فقلت: ودار الحرير وقيمتها عشرة آلاف دينار.

قال: بلى.

فقلت: وعقارك بباب الطاق، وقيمته ثلاثون ألف دينار.

فقال: بلى.

فقلت: وبستانك الفلانيّ، وضيعتك الفلانيَّة، وقيمتها كذا وكذا.

فقال: بلى.

فقلت: وما لك بالبصرة وقيمته مائة ألف دينار.

فقال: بلى.

فجعلت أعدّد عليه، من عقاراته، وضياعه، إلى أن بَلَغَتِ القيمةُ سبعمائة ألف دينار.

فقلت: وأصدقني عمّا سلم لك من الجوهر والأثاث والقماش والطيب والجواري والعبيد والدوابّ، وعن قيمة ذلك، وقيمة دارك؟

فأخذ يصدقني، ويقوّم، وأحصي، إلى أن بلغت القيمة لذلك، ثلاثمائة ألف دينار.

فقلت له: يا هذا، مَنْ ببغداد اليوم مَنْ يحتوي ملكه على ألف ألف دينار؟ وجاهُكَ عند الناس الجاه الأوَّل، وهم يظنون أنَّ الذي بقي لك ضِعْفُ هذا[1]، فلِمَ تغتمّ؟.

قال: فسجد الله، وحَمَدَهُ، وبكى، ثم قال: والله، لقد غَلَبَ الفِكْرُ عليَّ حتى نسيت جميع هذا أنَّه لي، وقلّ في عيني، لإضافتي إيَّاهُ إلى ما أُخِذَ منّي، ولو لم تجئني الساعة، لزاد الفِكْرُ عليَّ حتى يبطل عقلي، ولكنَّ الله تعالى أنقذني بك، وما عزَّاني أحد، بأنفع من تعزيتك، وما أكلت منذ ثلاث شيئاً، فأحبّ أن تقيمَ عندي، لنأكل ونَتَحدَّث ونتفرَّج.

فقلت: أفْعَلُ، فأقمت يومي عنده وأكلنا، وتحدَّثنا بقيَّة يومنا.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ١ - ٢٦.

٥٧

حديث عن الغريين

قال المهدي ذات ليلة ـ وكان أميراً على الرَّي من قِبَل أبيه المنصور: يا شرقيّ[١]، أرِحْ قلبي بشيء يُلهيه! قال: نعم أصلح الله الأمير:

ذكروا أنَّه في ملوك[٢] الحيرة ملك له نديمان: قد نزلا من قلبه منزلة مكينةً، وكانا لا يفارقانه في لَهْوه ومنامه ويقظته، وكان لا يقطعُ أمراً دونهما ولا يصدرُ إلاَّ عن رأيهما، فغبر بذلك دهراً طويلاً.

فبينما هو ذات ليلة في شُرْبه ولَهْوِه إذْ غلب عليه الشراب؛ فأزال عَقْلَه، فدعا بسيْفِه وانْتَضَاه، وشدَّ عليهما فقتلهما، وغلَبَتْه عيناه فنام.

فلمَّا أصبح سأل عنهما فأُخبر بما كان منه؛ فأكبَّ على الأرض؛ عاضّاً لها؛ تأسُّفاً عليهما، وجزَعاً لفراقهما، وامتنع من الطعام والشراب، ثم حلف لا يشرب شراباً يُزْعج قلبه ما عاش! وواراهما وبنى على قبريهما بناءين، وسمَّاهما الغَرِيَّين[٣]، وسن ألاَّ يمرَّ بهما أحدٌ من الملِك فَمنْ دونه إلاَّ سجَدَ لهما، وكان إذا سنَّ الملِكُ

(١) هو الشرقي بن القطامي: شاعر كلبي، كان وافر الأدب، عالماً بالنسب، وكان المنصور قد ضمَّه إلى المهدي حين خلفه بالرأي، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب، ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار، وقراءة الأشعار.

(٢) ذكروا أنه النعمان بن المنذر.

(٣) الغريان: بناءان بالكوفة؛ قيل سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بدم من يقتله.

سنَّة توارثوها، وأحيَوْا ذكرها ولم يُميتوها، وجعلوها عليهم حكماً واجباً وفرضاً لازماً، وأوصى بها الآباءُ أعقابَهم.

فعمل الناس بذلك دهراً طويلاً، لا يمرُّ أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما؛ فصار ذلك سنَّة لازمة كالشريعة والفريضة، وحُكِمَ فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن حُكم له بخصلتين يُجاب إليهما كائناً ما كان!.

فمرَّ يوماً قصَّار(١) معه كَارة(٢) ثياب، وفيها مِدقَّته(٣)، فقال الموكلون بالغَرِيين للقصَّار: اسجد! فأبى أن يفعل. فقالوا له: إنك مقتول إن لم تفعل؛ فأبى.

فرفعوه إلى الملك، وأخبروه بقصته، فقال: ما منعك أن تسجد؟ قال: سجدت ولكن كذَّبوا علي! قال: الباطلَ قلتَ فاحتَكِم في خصلتين؛ فأنت مجابٌ إليهما، وإني قاتلك! قال: لابدَّ من قتلي بقول هؤلاء؟ قال: لابدَّ من ذلك، قال: فإني أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقَّتي هذه! قال له الملك: يا جاهل؛ لو حكمت على أن أُجْرِي على من تُخلِّف وراءك ما بعيْنهم كان أصلح لهم!.

قال: ما أحْكم إلا بضَرْبَةٍ لرقبة الملك! فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيما حكم به هذا الجاهل؟ قالوا: نرى أنَّ هذه سنّة، وأنت أعلم بما في نَقْص السنن من العار والنار وعظم الإثم، وأيضاً إنك متى نقضت سنّة نقضت أخرى، ثم يكون ذلك لِمن بعدك كما كان لك، فتبطل السنن!

---

(١) قصر الثوب: صوره ودقه، وسمي القصار لأنه يدق الثياب بالقصرة وهي قطعة من الخشب.
(٢) الكارة: ما يحمل على الظهر من الثياب.
(٣) المدق: ما يدق به.

قال: فارغبوا إلى القَصَّار أن يحكم بما شاء ويعفيني من هذه، فإنّي أُجيبه إلى ما شاء، ولو بلغ حكمه شَطْرَ ملكي! فرغبوا إليه، فقال: ما أحكم إلاّ بضربة في عنق الملك!

فلما رأى الملكُ ذلك وما عزم عليه القَصَّار، قعد مقعداً عاماً، وأحضر القصَّار، فأبدى مِدَقَّته، وضرب بها عنق الملك؛ فأوهنه وخرَّ مغشياً عليه!

فأقام يشكو ما به سنة، فلما أفاق وتكلَّم، وأكل وشرب سألَ عن القصَّار، فقيل: إنه محبوس؛ فأمر بإحضاره فحضر؛ فقال: لقد بقيتُ لك خصلة فاحْكم بها، فإني قاتلك لا محالة؛ إقامةً للسنة! قال القصَّار: فإذا كان لابدَّ من قتلي فإني أحكم أن أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى!

فلما سمع الملكُ ذلك خَرَّ على وجهه من الجزع، وقال: ذهبتْ[1] والله نفسي إذَن. ثم قال للقصار: ويلك دَعْ عنك ما لا ينفعك، فإنه لم ينفعك منه ما مضى، واحكُم بغيره وأُنَفِّذه لك كائناً ما كان! قال: ما أرى حقي إلا ضربة أخرى!

فقال الملك لوزرائه: ما ترون؟ قالوا: هذا حقه! قال: ويلكم! إن ضُرِب الجانب الآخر ما شربت الماءَ البارد أبداً؛ لأني أعلم ما قد نالني.

قالوا: فما عندنا حيلة!

فلما رأى ما قد أشرف عليه قال لِلْقصار: أخبرني. ألم أكن قد سمعتك تقول يوم أُتِيَ بك الموكَّلون بالغريين: إنك قد سجدت، وإنهم كذَّبوا عليك؟ قال: قد كنتُ قلتُ ذلك فلم أصدَّق! قال: فكنت سجدت؟ قال: نعم! فوثب

---

(١) ذهبت نفسي، أي هلكت.

من مجلسه، وقبَّل رأسه، وقال: أشهد أنك صادق، وأنهم كذَّبوا عليك، وقد ولَّيتك موضعهم، وجعلت إليك أمرهم.

فضحك المهدي حتى فحص برجليه، وقال: أحسنت! ووصله.

مروج الذهب: ٢ - ٢٥٢،
معجم البلدان: ٦ - ٢٨٣، قصص العرب: ٢ - ٥٤.

٥٨

أمير في مجلس القضاء

أتت امرأةٌ يوماً شَرِيكَ[١] بن عبدالله قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي! قال: مَنْ ظلمك؟قالت: الأمير موسى بن عيسى عمُّ أمير المؤمنين؛ كان لي بُسْتَان على شاطىء الفرات، فيه نخلٌ ورِثْتُه عن أبي، وقاسمْتُ إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلتُ فيه رجلاً فارسيًّا يحفظُ النَّخْل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بنُ عيسى مِن جميع إخواتي، وسَاوَمَنِي ورغَّبني، فلم أبِعْه؛ فلما كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام، فاقتلعوا الحائط؛ فأصبحتُ لا أعرف من نَخْلِي شيئاً، واختلط بنخل إخوتي.

فقال: ياغلام! أحضر طِينَةً[٢] فختمها، وقال: امضِ بها إلى بابه حتى يحضرَ معك؛ فأخذها الحاجب، ودخل على موسى، فقال: قد أعْدى[٣] القاضي عليك، وهذا خَتْمُه؛ فقال: ادُع لي صاحب الشرطة فدعا به، قال: امضِ إلى شريك، وقل: ياسبحان الله! ما رأيتُ أَعْجَبَ من أمرك! امرأة ادَّعت دَعْوى لم تصح أعْدَيتها عليَّ! قال صاحبُ الشرطة: إن رأي الأميرُ أن يُعفيني من ذلك! فقال: امضِ، وَيْلَك! فخرج، وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا لي إلى حَبْس

(١) هو شريك بن عبدالله بن الحارث النخعي الكوفي، عالم فقيه، اشتهر بقوَّة ذكائه، وسرعة بديهته. ولي قضاء الكوفة سنة ١٥٣هـ. وكان مثالاً للعدل والنزاهة في قضائه، توفي سنة ١٧٧هـ.
(٢) الطينة: القطعة من الطين.
(٣) أعدى عليه: أعان.

القاضي بِسَاطاً وفراشاً، وما تدعُو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شَريك، فلما وقف بين يديه أدَّى ما قاله موسى، فقال لغلام المجلس: خذ بيده فضعه في الحبس. فقال صاحب الشرطة: والله قد علمتُ أنك تحبسني، فقدمتُ ما أحتاج إليه في الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر؛ فوجَّه الحاجبَ إليه، وقال له: رسولٌ أدَّى رسالة أيُّ شيء عليه! فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه في الحَبْس، فحُبس.

فلما صلَّى الأمير العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شَريك، وقال لهم: أَبْلِغُوه السلام، وأعلموا أنَّه استخفَّ بي. وأني لستُ كالعامَّة؛ فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم، قال لهم: مالي أراكم جئتموني في جمع من الناس، فكلمتموني؟ مَنْ هاهنا من فِتْيَان الحي؟ فأجابه جماعة من الفتيان فقال: ليأخذْ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلَّا فِتْنَةٌ وجزاؤكم الحبس. قالوا له: أجادٌ أنت؟ قال: نعمْ، حتى لا تعودوا لرسالةِ ظالم. فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى في الليلة إلى باب السجن، وفتح الباب، وأخرجهم كلهم، فلمَّا كان من الغد، وجلس شريك للقضاء جاءه السجَّان فأخبره، فدعا بالقِمْطر(١) فختمه، ووجَّه إلى منزله، وقال لغلامه: الحَقْ بَثَقلي(٢) إلى بغداد، والله ما طَلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإِعْزَازَ إذا تقلدْناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد، وبلغ الخبرُ إلى موسى بن عيسى، فركب في موكبه، فلحقه، وجعل يناشده الله، ويقول: ياأبا

---

(١) القمطر: وعاء الكتب.
(٢) الثقل: المتاع

عبدالله تثبَّت، انظر إخواني، أتحبسهم! قال نعم، لأنهم مشوا لك في أمرٍ لم يَجُزْ لهم المشي فيه، ولستُ ببارح أو يُردّوا جميعاً، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي، فاستعفيتُه مما قلّدني.

فأمر موسى بردّهم جميعاً إلى الحَبْس، وهو واقفٌ مكانه حتى جاء السجّان، فقال: قد رَجَعُوا جميعاً إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بِلجَام دابته بين يدي إلى مجلس الحكم، فمرُّوا به بين يديه حتى أُدخِلَ المسجد وجلس في مَجْلس القضاء، فجاءت المرأة المتظلمة؛ فقال: هذا خَصْمُك قد حضر، فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه، قبل كلَّ أمرٍ أنا قد حضرت، أولئك يخرجون من الحبس، فقال شَريك: أمَّا الآن فنعم! أَخْرجوهم من الحبس، فقال: ما تقول فيما تدَّعيه هذه المرأة؟ قال: صدَقَّتْ، قال: تردُّ ما أخذتَ منها، وتبني حائطها سريعاً كما كان. قال: أفعل ذلك، قال لها: أَبقِيَ لكِ عليه دعوى؟ قالت: لا، وبارك الله عليك، وجزاك خيراً. قال: قومي، فقامت من مجلسه.

فلمّا فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأَجْلَسَهُ في مجلسه؛ وقال: السلام عليك أيها الأمير، أتأمرُ بشيء؟ فقال: بأيّ شيء آمر؟ وضحك، فقال له شريك: أيها الأمير، ذاك الفعل حقُّ الشرع، وهذا القول الآن حق الأدب؛ فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه.

العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٢،
قصص العرب: ٣ ـ ٧١.

٥٩

فطنة

كان المعتضد[١] يوماً جالساً في بيت يُبنَى له، وهو يشاهد الصُّنَّاع، فرأى في جملتهم عبداً أسودَ مُنْكَر الخَلْق، شديدَ المَرَح، يصعد على السلالم مَرْقاتين[٢] مِرْقاتين، ويحمل ضعف ما يحمل غيره، فأنكر أمرَه. وأحضره، وسأله عن سبب ذلك، فَلَجْلَجَ[٣]. فقال لوزيره: قد خمَّنْتُ[٤] في هذا تخميناً ما أحسبه باطلاً، إمَّا أن يكونَ معه دنانيرُ قد ظَفِر بها من غَيْرِ وجهها، أو يكون لِصًّا يتستَّر بالعمل. ثم قال: عليَّ بالأسود، فأحضره وضربه، وحلف إن لم يصدقه لَيَضْرِبَنَّ عنقه. فقال الأسود: ولي الأمان ياأمير المؤمنين؟ قال: نعم، إلا ما كان من حدٍّ؛ فظنَّ أنه قد أمنَّه.

فقال: كنتُ أعمل في أَتُون الآجُرّ منذ سنين، فأنا منذ شهور جالس إذ مرَّ بي رجل في وسطه كيس، فتبعتُه وهو لا يعرف مكاني، فحلَّ الهِمْيَان[٥]، وأخرج منه ديناراً، فتأملْتُه فإذا كلُّه دنانير، فكتَّفْتُه، وسدَدْتُ فاه، وأخذت الهمْيَان،

(١) بويع المعتضد للخلافة سنة ٢٧٧ وتوفي سنة ٢٨٠هـ.
(٢) السلاليم: جمع سلم، والمرقاة: الدرجة.
(٣) اللجلجة: التردد.
(٤) التخمين: القول بالحدس والظن.
(٥) الهميان: وعاء للدراهم.

وحملته على كتفي، وطرحته في التَّنور، وطيَّنْتُ عليه. فلمَّا كانَ بعد أيام أخرجتُ عظامه وطرحتها في دجلة، والدنانير معي تقوِّي قلبي.

فأرسل المعتضد من أحضر الدنانير، وإذا على الكيس: «لفلان ابن فلان» فنادى في المدينة، فحضرت امرأته، وقالت: هذا زوجي، وقد ترك طفلاً صغيراً خرج في وقت كذا ومعه كيس فيه ألف دينار، فغاب إلى الآن، فسلَّم الدنانير إليها، وضرب عنق الأسود، وأمر أن يوضع في الأتُّون.

نهاية الأرب: ٣ ـ ١٥٠،
قصص العرب: ٣ ـ ٩٢.

٦٠

من قدم أمر الله على أمر المخلوقين
كفاه الله شرهم

حدَّثني أبو الحسن عليّ بن القاضي أبي طالب محمد بن القاضي أبي جعفر ابن البهلول، قال:

طلبت السيِّدة أُمّ المقتدر[١]، من جدِّي، كتاب وقف لضيعة كانت ابتاعتها، وكان الكتاب في ديوان القضاء، فأرادت أخذه لتخرّقه، وتبطل الوقف، ولم يعلم جدِّي بذلك.

فحمله إلى الدار، وقال للقهرمانة: قد أحضرت الكتاب كما رسَمتْ[٢] فأين تريد[٣].

(١) أم المقتدر: اسمها شغب، وكانت تدعى السيدة، مولاة المعتضد، كان إليها وإلى أختها تدبير الدولة في أيام ولدها المقتدر، يقال إن واردها من ضياعها بلغ ألف ألف دينار في السنة، ولما قتل ولدها المقتدر، دعاها القاهر، وطالبها بأن تخرج أموالها، وضربها بيده مائة مقرعة، وعلّقها برجل واحدة منكسة، حتى كان بولها يجري على وجهها، وأجبرها فوكلت على بيع أملاكها، وامتنعت على حل الوقف، وقالت أنها أوقفته على مكة والثغور والضعفاء والمساكين، وإنها لا تستحل حله، فغضب القاهر وحلّ وقفها، وباعه مع ملكها، وكان موتها في السنة ٣٢١ بعد قتل ولدها المقتدر بسبعة أشهر وثمانية أيام. (المنتظم ٦/٢٥٣).

(٢) في ب: كما أمرتم.

(٣) الضمير يعود للسيدة أم المقتدر.

فقالوا: نريد أن يكون عندنا.

فأحسَّ بالأمر، فقال لأمّ موسى القهرمانة[1]: تقولين للسيِّدة أعزَّها الله، هذا والله ما لا طريق إليه أبداً، أنا خازن المسلمين على ديوان الحكم فإمَّا مكّنتموني من خزنه كما يجب، وإلاَّ فاصرفوني وتسلَّموا الديوان دفعة، فاعملوا به ما شئتم، وخذوا منه ما أردتم، ودعوا ما أردتم، أمَّا أن يفعل شيء منه على يدي، فوالله لا كان هذا ولو عُرِضْتُ على السيف.

ونهض والكتاب معه، وجاء إلى طيَّارة، وهو لا يشكّ في الصرف، فصعد إلى ابن الفرات، فحدَّثه بالحديث، وهو وزير.

فقال: ألا دافعت عن الجواب، وعرَّفتني حتى كنت أتلافى ذلك، الآن أنت مصروف، ولا حيلة لي مع السيِّدة في أمرك.

قال: وأدَّت القهرمانة الرسالة إلى السيِّدة، فشكته إلى المقتدر.

فلمَّا كان في يوم الموكب، خاطبه المقتدر شفاهاً في ذلك، فكشف له الصورة، وقال مثل ذلك القول في الاستعفاء.

فقال له المقتدر: مثلك ياأحمد يقلِّد القضاء، أقم على ما أنت عليه، بارك الله فيك، ولا تخف أن يثلم ذلك عرضك عندنا.[2]

---

(١) أم موسى القهرمانة: كانت إحدى نسوة ثلاث، مسيطرات على أمور الدولة في زمن الخليفة المقتدر، هن السيدة أم المقتدر، وخالته،د وأم موسى القهرمانة، وقد تمكنت من الدولة وأثرت ثراءاً فاحشاً، وفي السنة ٣١٠ سخط عليهاالخليفة وقبض عليها وعلى أسبابها ومن كانت تعني به، واستخرج منها ألف ألف دينار، لاتهامها بأنها سعت في إزاحة المقتدر عن الخلافة ونقلها إلى أبي العباس محمد بن إسحاق بن المتوكل الذي زوَّجته بابنة أخيها (المنتظم ١٦٦/٦ وتجارب الأمم ٨٣/١).

(٢) ١ في ط: ولا تخف أن ينثلم محلك عندنا.

قال: فلما عاودته السيِّدة، بلغنا أنَّه قال لها: الأحكام ما لا طريق إلى اللعب به، وابن البهلول مأمون علينا، محبٌ لدولتنا، وهو شيخ ديِّن مستجاب الدعوة، ولو كان هذا شيئاً يجوز، ما منعك إيَّاه.

فسألت السيِّدة كاتبها ابن عبدالحميد عن ذلك، وشرحت له الأمر.

فلمَّا سمع ما قاله جدِّي، بكى بكاءً شديداً ـ وكان شيخاً صالحاً من شيوخ الكتَّاب ـ وقال: الآن علمت[1] أنَّ دولة السيِّدة وأمير المؤمنين تبقى، وتثبت أركانها، إذ كان فيها مثل هذا الشيخ الصالح -الذي يُقيمُ الحقَّ على السيِّدة، ولا يخاف في الله لومة لائم. فأيُّ شيء يساوي شراؤكم لوقف؟ وإن أخذتم كتابه فخرَّقتموه، فأمْر شائع ذائع، والله فوق كل شيء، وبه عالم.

فقالت السيِّدة: وكأنَّ هذا لا يجوز؟.

فقال لها: لا، هذه حيلة من أرباب الوقف على مال الله، وأعلمها أنَّ الشراء لا يصحّ بتخريق كتاب الوقف، وهذا لا يحلّ.

فارتجعت المال، وفسخت الشراء، وعادت تشكر جدِّي، وانقلب ذلك له أثراً جميلاً عندهم.

فقال لنا جدِّي بعد ذلك: من قدّم أمر الله تعالى على أمر المخلوقين كفاه الله شرَّهم.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ١ ـ ٢٤٢.

---

(١) في ط: فسألت السيدة علي بن موسى، وكان شيخاً خالصاً من شيوخ الكتاب، خطابه، وأعلمته ما كان منه، فقال؛ الآن علمت.. إلخ.

٦١

هذا بغية أمير المؤمنين

أهدر أميرُ المؤمنين المنصورُ دَمَ رجلٍ، كان يَسْعى بفسادِ دَوْلته مع الخوارج، من أهل الكوفة. وجَعَل لمن دلَّ عليه، أو جاء به مائةَ ألف درهم. ثم إنَّ الرجلَ في بغداد، فبينما هو يمشي مُخْتفياً في بعض نواحيها. إذ بَصُر به رجلٌ من أهل الكوفة، فعرفه؛ فأخذ بمجامع ثيابه، وقال: هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين.

فبينما الرجلُ على هذه الحال إذ سَمع وقْعَ حوافر الخيل، فالتفَت فإذا معْن ابن زائدة[1]، فاستغاث به؛ وقال: أجِرْني أجارَك الله! فالتَفت مَعْنٌ إلى الرجل المتعلِّق به، وقال: ما شأنُكَ وهذا؟ فقال: إنه بُغْيَةُ أمير المؤمنين الذي أَهْدَرَ دَمه وجعل لمن دلَّ عليه مائةَ ألف درهم. فقال: دَعْهُ. وقال لغلامه: انزل عن دابَّتك، واحمل الرجلَ عليها.

فصاح الرجلُ المتعلِّقُ به وصرخ واستجار بالناس، وقال أيُحَالُ بيني وبين بُغية أمير المؤمنين؟ فقال له مَعْن: اذهب فقل لأميرِ المؤمنين وأخبره أنه عندي.

---

(١) كان معن بن زائدة جواداً شجاعاً، جزيل العطاء، كثير المعروف ممدوحاً مقصوداً، وكان في أيام بني أميَّة متنقلاً في الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزازي، فلمَّا كانت أيام المنصور اتصل به بعد أحداث، وصار من خواصه، وتوفي سنة ١٥٨هـ.

فانطلق الرجلُ إلى المنصور وأخبره، فأمر المنصور بإحضار مَعْن في الساعة؛ فلما وصل أمرُ المنصور إلى مَعْن دعا جميعَ أهل بيته ومواليَه وأولادَه وأقاربَه وحاشيته، وجميعَ مَن يلوذُ به؛ وقال لهم: أقسم عليكم ألاَّ يصلَ إلى هذا الرجل مكروه أبداً، وفيكم عينٌ تَطْرف.

ثم إنه سار إلى المنصور؛ فدخل وسلَّم عليه، فلم يردّ عليه المنصورُ السلام، ثم قال له: يامَعْن؛ أتتجرَّأ عليَّ؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين! فقال المنصور: ونعم أيضاً! وقد اشتدَّ غضبه. فقال مَعْن: يا أميرَ المؤمنين؛ كم من مرَّة تقدَّم في دولتكم بلائي، وحسْنُ غَنائي[1]؟ وكم من مرَّة خاطرتُ بدمي؟ أفما رأيتموني أهلاً لأنْ يُوهَب لي رجلٌ واحد اسْتجار بي بين الناس، يوهمه أني عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين، وكذلك أنا! فمرَّ بما شئت، وهأنَذَا بين يديك!.

فأطرق المنصورُ ساعة، ثم رفع رأسه، وقد سكَنَ ما به من الغضبِ، وقال له: قد أجَرْناه لك يامَعْن: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يجمعَ بين الأجْرَين فأمر له بصلة أُحْيَاه وأغْناه.

فقال المنصورُ: قد أمرنا له بخمسين ألف درهم. فقال معن: يا أميرَ المؤمنين؛ إن صلاتِ الخلفاء على قَدْرِ جِنَايات الرعية، وإنَّ ذنبَ الرجل عظيم، فأجْزلْ له صِلَته. قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم. فقال له معن: عَجِّلْها ياأمير المؤمنين، فإنَّ خيرَ البرِّ عاجلُه، فأمر بتعجيلها؛ فحملها وانصرف؛ وأتى منزله؛ وقال: للرجل: يارجلُ؛ خُذْ صلَتكَ والحقْ بأهلك؛ وإياك ومخالَفة الخلفاء في أمورهم بعد هذه.

ذيل ثمرات الأوراق للحموي: ١٦٧،
غرر الخصائص: ١٧، قصص العرب: ١ ـ ٢٥٠.

---

(١) الغناء: النفع.

٦٢

حدثني عن أغرب ما مر بك

لما أَفْضَتِ الخلافةُ إلى بني العَبَّاس اختفى جميعُ رجالِ بني أُميَّة - وكان منهم إبراهيمُ بن سليمان - فشفعَ له عند السَّفَّاح(١) بعضُ خواصِّه، فأعْطَاه الأمان، ثم أحلَّه مجلسَه، وأكرم مَثْواه.

وقال له السَّفاح ذات يوم: ياإبراهيم، حدِّثني عن أغرَب ما مرَّ بك أيامَ اختفائك.

فقال: كنت مختفياً في الحِيرة بمنزل مُشْرِفٍ على الصحراء، فبينما كنْتُ يوماً على ظَهْرِ ذلك البيت أبصرتُ أعلاماً سَوْدَاء قد خرجتْ من الكوفة تُريدُ الحيرة، فأوْجَسْتُ منها خِيفةً إذ حسبتُها تقصدني.

فخرجتُ مُسْرِعاً من الدار متنكِّراً، حتى أتيتُ الكوفةَ، وأنا لا أعرفُ مَنْ اخْتَفى عنده، فبقيت متحيراً في أمري، فنظرتُ وإذا أنا بباب كبير فَدَخَلْتُه، فرأيت في الرَّحَبة(٢) رجلاً وسيماً(٣) لطيفَ الهيئة، نظيفَ البِزَّة(٤)، فقال لي: مَن أنت؟ وما حاجتُك؟ قلت: رجلٌ خائفٌ على دَمِه، جاء يَسْتَجِيرُ بك.

---

(١) اسمه عبدالله بن محمد، أوّل خلفاء الدولة العباسية، بويع له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢هـ، وتوفي بالأنبار سنة ١٣٦هـ.

(٢) الرحبة: الساحة.

(٣) وسيماً: حسن الوجه.

(٤) البزة: الثياب.

فأدخلني منزله، وَوَاراني في حُجرة تلي حجرةَ حُرَمِه[١]. فأقمتُ عنده، ولي كلُّ ما أحبُّ من طعام وشراب ولِباس، وهو لا يسألني عن شيء من حالي، إلاَّ أنه كان يركبُ في كلِّ يوم من الفجر، ولا يرجع إلاَّ قُبَيل الظهر.

فقلتُ له يوماً: أراك تُدمن[٢] الركوبَ فَفيم ذلك؟ قال لي: إنَّ إبراهيمَ ابنَ سليمان بن عبدالملك قَتل أبي، وقد بَلغني أنه مختفٍ في الحِيرة، فأنا أطلبُه لعلِّي أجدُه وأُدْرك منه ثأري. فلما سمعتُ ذلك ـ يا أمير المؤمنين ـ عَظُم خوفي، وضاقتِ الدنيا في عينيّ، وقلت: إني سُقْتُ نفسي إلى حَتْفِي.

ثم سألتُ الرجلَ عن اسمه واسمِ أبيه، فأخبرني عن ذلك؛ فعلمت أنَّ كلامَه حقٌّ؛ فقلت له: ياهذا؛ إنه قد وَجب عليَّ حقك، وجزاءً لمعروفك لي أريدُ أدلَّك على ضَالّتك.

فقال: وأينَ هو؟ قلت: أنا بُغْيتك إبراهيم بن سُليمان، فَخُذْ بِثَأرِك. فتبسم، وقال: هل أضْجَرك[٣] الاختفاء والبعدُ عن دارك وأهلك فأحْبَبت الموت؟ قلت: لا والله! ولكني أقول لك الحق، وإني قتلتُ أباك في يوم كذا ومن أجل كذا وكذا.

فلما سمع الرجلُ كلامي هذا، وعلم صِدْقِي تغيَّر لونُه واحمرَّتْ عيناه؛ ثم فكَّر طويلاً، والتفت إليَّ، وقال: أمَّا أنتَ فسوف تَلْقى أبي عند حاكم عادل فيأخذُ بثأره منك، وأمَّا أنا فلا أخفُر ذمتي[٤]، ولكني أرغَب أنْ تبعد عني فإني لستُ آمنُ عليك من نفسي. ثم إنه قدَّم لي ألف دينار، فأبيتُ أخْذَها، وانصرفتُ عنه.

---

(١) حرمه: نسائه.

(٢) تدمن: تديم.

(٣) أضجرك: أتعبك.

(٤) لا أخفر ذمتي: لا أنقض عهدي معك ولا أغدر بك بعد أن امنتك.

فهذه الحادثة أغربُ ما مرَّ بي، وهذا الرجلُ هو أكرمُ مَن رأيته، وسمعتُ عنه بعدَك يا أمير المؤمنين.

بحر الآداب: ٣ - ٥٢،
قصص العرب: ١ - ٢٤٦.

٦٣

من توكل على الله فهو حسبه

حكى أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال وكان له أولاد ذكور وإناث ولم يكن يملك حبة واحدة وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدَّث معهم فتعرضوا لذكر الحج فداخل الشوق قلبه ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدِّثهم ثم قال لهم لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم فقالت زوجته وأولاده على هذه الحالة لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة وكان له ابنة صغيرة فقالت ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك دعوه يذهب حيث شاء فإنه مناول الرزق وليس برازق فذكرتهم ذلك فقالوا صدقت والله هذه الصغيرة ياأبانا انطلق حيث أحببت.

فقام من وقته وساعته وأحرم للحج وخرج مسافراً وأصبح بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون لو سكتت ما تكلمنا فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيِّبهم ولا تخجلني معهم.

فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً فانقطع عن عسكره

وأصحابه فحصل له عطش شديد فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستسقى منهم ماء وقرع الباب فقالوا من أنت قال: الأمير ببابكم يستسقيكم فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت إلهي سبحانك البارحة بتنا جياعاً واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا.

ثم إنها أخذت كوزاً جديداً وملأته ماء وقالت للمتناول منها اعذرونا فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال هذه الدار لأمير فقالوا لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم فقال الأمير لقد سمعت به فقال الوزير ياسيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعاً فقال الأمير ونحن أيضاً ثقلنا عليهم اليوم وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم ثم حلَّ الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار ثم قال لأصحابه من أحبني فليلق منطقته فحلَّ جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه لمناطق.

فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً واستردَّها منهم فلما رأت الصبيَّة الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديداً فقالوا لها ما هذا البكاء إنما يجب أن تفرحي فإنَّ الله قد وسَّع علينا فقالت ياأم والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعاً فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين اللهمَّ انظر إلى أبينا ودبِّره بأحسن التدبير هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج محرماً ولحق بالقوم توجع أمير الركب فطلبوا له طبيباً فلم يجدوا فقال هل من عبد صالح فدلَّ على حاتم فلما دخل عليه وكلَّمه دعا له فعوفي الأمير من وقته فأمر له بما يركب وما يأكل وما يشرب فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله فقيل له في منامه ياحاتم من

أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه. ثم أخبر بما كان من أمر عياله فأكثر الثناء على الله تعالى فلما قضى حجه ورجع تلقّته أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال صغار قوم كبار آخرين إنَّ الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من توكّل على الله فهو حسبه.

المستطرف: ١ ـ ٦٤.

٦٤

الوزير علي بن عيسى يفرض على ملك الروم أن يحسن معاملة الأسارى المسلمين

حدَّثني القاضي أبو بكر محمد بن عبدالرحمن(١)، قال حدَّثني مكرَّم ابن بكران، عن(٢) أبي يحيى بن مكرَّم القاضي، قال:

كنْتُ خصيصاً بأبي الحسن عليّ بن عيسى، وربما شاورني في شيء من أمره، قال: دخلت عليه يوماً وهو مغمومٌ جدًّا، فقدَّرت أنَّه بلغه عن المقتدر أمر كرهه، فقلت هل حدثَ شيء؟ وأومأت إلى الخليفة.

فقال: ليس غمّي من هذا الجنس، ولكن ممَّا هو أشدُّ منه.

فقال: إن جاز أن أقف عليه فلعلِّي أقول فيه شيئاً.

---

(١) أبو بكر محمد بن عبدالرحمن القاضي المعروف بابن أبي قريعة، كان يأتي بالكلام مسجوعاً مطبوعاً من غير تعمد. ومن لطيف ما يروي عنه، أنه كان في بغداد قائد يلقَّب بالكنية، كنيته أبو إسحاق، وكان يخاطب ابن قريعة بالقاضي، ويخاطبه ابن قريعة بالقائد، فبدر منه يوماً في المخاطبة أن قال لابن قريعة: ياأبا بكر، فقال له ابن قريعة: لبيك ياأبا إسحاق، فقال القائد: ما هذا؟ فقال: ياهذا إنما قوَّدناك إذ قضيَّتنا، فإذا بكركتنا تسحقناك، فقال القائد: ويلاه، هذا أفظع من الأول. توفي ابن قريعة سنة ٣٦٧ عن خمس وستين سنة (المنتظم ٩١/٧).

(٢) وهو أبو يحيى عبدالله بن إبراهيم بن مكرم، كان من شباب بغداد وشهد عند القاضي أبي عمر، وولي القضاء ببغداد ثم ولَّاه ابن الفرات قضاء مصر فاستخلف عليها ولم يدخلها (الولاة للكندي ٥٣١).

فقال: نعم: كتب إليَّ عاملُنا بالثَّغْر، أنَّ أسارى المسلمين في بلد الروم، كانوا على رفقٍ وصيانةٍ إلى أن وُلِّي آنفاً، مُلْكَ الروم، حدَثان، فعسفا الأسارى، وأجاعاهم، وأعرياهم، وعاقباهم، وطالباهم بالتنصُّر، وأنَّهم في جهد جهيد، وبلاء شديد، وليس هذا ممَّا لي فيه حيلة، لأنَّه أمر لا يبلغهع سُلْطَانُنا، والخليفة لا يطاوعني، فكنت أنفق الأموال، وأجتهد وأجهزِّ الجيوش حتى تطرق القسطنطينية.

فقلت أيُّها الوزير. ها هنا رأي أسهل ممَّا وقع لك، يزول به هذا.

فقال: قال يامبارك.

فقلت: إنَّ بأنطاكية عظيماً للنصارى يقال له البطرك[1]، وببيت المقدس آخر يقال له الجاثليق[2]، وأمرهما ينفذ على مَلِكِ الروم، حتى أنَّهما ربَّما حرَّما الملك فيحرم عندهم، ويحلاَّنه فيحلّ. وعند الروم أنَّه من خالَفَ منهم هذين فقد كفر، وأنَّه لا يتمّ جلوس الملك ببلد الروم إلاَّ برأي هذين، وأن يكونَ الملك قد دَخَلَ إلى بيعتهما، وتقرَّب بهما، والبَلَدَان في سلطاننا، والرَجُلان في ذمَّتنا، فيأمر الوزير بأن يُكتب إلى عاملي البلدين بإحضارهما، وتعريفهما ما يجري على الأسارى، وأنَّ هذا خارج عن الملك، وأنَّهما إن لم يزيلا هذا، لم يطالب بجريرته غيرهما وينظر ما يكون من الجواب.

قال: فاستدعي كاتباً، وأملي عليه كتابين في ذلك، وأنفذهما في الحال، وقال: سرّيت عنِّي قليلاً، وافترقنا.

(١) البطرك والبطريك والبطريرك جمعها بطاركة وباطريك: رئيس الأساقفة.

(٢) الجاثليق والجثليق جمعها جثالقة، متقدم الأساقفة، يونانية.

فلمَّا كان بعد شهرين وأيَّام، وقد أُنسِيتُ الحديثَ، جاءني فرانق[1] من جهته يطلبني، فركبت وأنا مشغول القلب بمعرفة السبب في ذلك، حتى وصلت إليه، فوجدته مسروراً، فحين رآني قال: ياهذا، أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعنيٍّ.

فقلت: ما الخبر؟.

قال: كان رأيك في أمر الأسارى أبرَكَ رأيٍ وأصحَّه، وهذا رسول العامل قد وَرَد بالخبر، وأومأ إلى رجل كان بحضرته، وقال له: خبِّرنا بما جرى.

فقال الرجل: أنفذني العاملُ مع رسول البطرك والقاثليق، برسالتهما إلى قسطنطينية[2] وكتاب إلى مليكها: إنَّكما قد خرجتما عن ملَّة المسيح لما فعلتماه بالأسارى وليس لكما ذلك، فإنَّه حرامٌ عليكما، ومُخالفٌ لما أمرنا به المسيح من كذا وكذا، وعدَّدا أشياء في دينهما، فإمَّا زلتما عن هذا، واستأنفتما الإحسان إلى الأسارى، وتركتما مطالبتهم بالتنصُّر، وإلَّا لعنَّاكما على هذين الكرسيَّن وحرَمْناكما.

قال: فمضيت مع الرسول، فلما صرنا بقسطنطينية، حُجِبْتُ عن المِلِكين أيَّاماً، وخليا بالرسول، ثمَّ استدعياني إليهما، فسلَّمت عليهما، فقال لي ترجمانهما: يقول لك الملكان، إنَّ الذي بَلَغَ مَلِكَ العرب من فعلنا بالأسارى، كذب وتشنيع، وقد أذنَّا في إدخالك دار البلاط لتشاهد أساراكم، فترى أحوالهم بخلاف ما بلغكم، وتسمع من شكرهم لنا، ضدَّ ما اتَّصل بكم.

قال: ثم حُملت إلى دار البلاط، فرأيت الأسارى، وكأنَّ وجوههم قد أخرجت من القبور، تشهد بالضرِّ [الشديد والجهد الجهيد] وما كانوا فيه من

---

(١) الفرانق: الساعي المكلَّف بنقل الرسائل.

(٢) قسطنطينية: وكان اسمها بزنطية فسميت قسطنطين الأكبر الذي انتقل إليها وبنى سورها وهي دار ملك الروم وتسمى اصطنبول، (معجم البلدان ٤/ ٩٥).

العذاب إلى حين قدومنا إلاَّ أنَّهم مرفَّهون في ذلك الوقت، وتأمّلت ثيابهم، فإذا جميعها جدد، فعلمت أنّي مُنعتُ من الوصول تلك الأيام غُيِّر زيّ الأسارى وأصلح أمرهم.

وقال لي الأسرى: نحن للملكين شاكرون، فَعَلَ الله بهما وَصَنَعَ، وأوموأوا إليَّ، إنَّ الأمر كان كما بَلَغَكُمْ، ولكنه خفَّف عنَّا، وأحسن إلينا، بعد حُصُولَك ها هنا.

وقالوا لي كيف عُرِفَتْ حالُنا؟ ومن تَنَبَّهَ، وأنفذك بسببنا؟

فقلت لهم: وَلِيَ الوزارة عليّ بن عيسى فَبَلَغَهُ ذلك، فأنفذ من بغداد، وفَعَلَ كذا وكذا.

قال: فضجّوا بالدعاء إلى الله تعالى للوزير، وَسَمِعْتُ امرأة منهم تقول: مُرَّ يا عليَّ بن عيسى لا نَسِيَ الله لك هذا الفعل.

قال: فلما سَمِعَ ذلك عليّ بن عيسى أجهش بالبكاء، وسَجَدَ حمداً لله سبحانه وتعالى، وَبَرَّ الرسول، وصَرَفَهُ.

فقلت له: أيُّها الوزير، أسمعك دائماً تتبرَّم بالوزارة، وتتمنَّى الإنصراف عنها في خلواتك خوفاً من آثامها، فلو كنت في بيتك، هل كنت تقدر أن تحصِّل هذا الثواب ولو أنفقت فيه أكثر مالك؟ فلا تَفْعلْ، ولا تتبرَّم بهذا الأمر فلعلَّ الله يمكنّك ويُجري على يديك أمثال هذا الفعل، فَتَفوزَ بثوابه في الآخرة، كما تفرّدت بشرف الوزارة في الدنيا.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ١ ـ ٥٢.

٦٥

قصة القاضي أبا بكر محمد

قال القاضي أبو بكر محمد بن عبدالباقي بن محمد البزّار الأنصاري:

كنت مجاوراً بمكة حرسها الله تعالى، فأصابني يوماً من الأيام جوعُ شديد لم أجد شيئاً أدفع به عني الجوع، فوجدتُ كِيساً من إبريسَم مشدوداً بشُرَّابَة من إبريسَم أيضاً، فأخذتُه وجئتُ به إلى بيتي، فحللتُه فوجدتُ فيه عِقداً من لؤلؤ لم أرَ مِثله.

فخرجتُ فإذا بشيخ يُنادي عليه، ومعه خِرقة فيها خمسُ مئة دينار وهو يقول: هٰذا لمن يَرُدُّ علينا الكيسَ الذي فيه اللؤلؤ، فقلتُ: أنا محتاج، وأنا جائع، فآخُذُ هذا الذهب فأنتفع به، وأرُدُّ عليه الكيس.

فقلت له: تعال إليَّ، فأخذتُه وجئتُ به إلى بيتي، فأعطاني عَلاَمة الكيس، وعلامة الشُرَّابة، وعلامة اللؤلؤ وعَدَدَه، والخيط الذي هو مشدود به، فأخرجته ودفعته إليه، فسلَّم إليَّ خمسَ مئة دينار، فما أخذتُها، وقلت: يجبُ عليّ أن أُعيده إليك، ولا آخذَ له جزاء، فقال لي: لابُدَّ أن تأخذ وألحَّ عليَّ كثيراً، فلم أقبل ذلك منه، فتركني ومضى.

وأما ما كان مني، فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر، فانكسر المركب وغَرِقَ الناس، وهلكَتْ أموالُهم، وسلِمتُ أنا على قطعةٍ من المركب، فبقيتُ مُدَّةً

في البحر لا أدري أين أذهب؟! فوصلتُ إلى جزيرة فيها قوم، فقَعدتُ في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليّ وقال: علِّمني القرآن فحصلَ لي من أولئك القوم شيء كثير من المال.

ثم إني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف، فأخذتُها أقرأ فيها، فقالوا لي: تُحسِنُ تكتب؟ فقلت: نعم، قالوا: علِّمنا الخط، فجاؤا بأولادهم من الصبيان والشباب. فكنت أُعلِّمُهم، فحصل لي أيضاً من ذلك شيء كثير، فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صَبِيَّةٌ يتيمة، ولها شيء من الدنيا، نريد أن تَتزوَّج بها، فامتنعتُ، فقالوا: لابدَّ، وألزموني فأجبتهم إلى ذلك.

فلمّا زَفُّوها إليَّ مَدَدْت عينيَّ انظرُ إليها، فوجدتُ ذلك العِقْدَ بعينه معلَّقاً في عُنُقِها، فما كان لي حينئذٍ شُغل إلا النظرَ إليه، فقالوا: ياشيخ كسرَت في قلب هذه اليتيمة من نظرِك إلى هذا العِقد، ولم تنظر إليها، فَقَصَصتُ عليهم قِصَّةَ العقد، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلَغَ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلتُ ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخُ الذي أخَذَ منك العِقدَ أبو هذه الصِبية وكان يقول: ما وجدتُ في الدنيا مُسْلِماً إلاَّ هذا الذي رَدّ عليَّ هذا العقد، وكان يدعو ويقول: اللهمَّ اجمع بيني وبينه حتى أُزوِّجَه بابنتي، والآن قد حصَلَتْ، فبقيتُ معها مدَّة، ورُزقتُ منها بولدين.

ثم إنَّها ماتت فورثْتُ العقد أنا وولداي، ثم مات الولدان، فحصَلَ العقدُ لي، فبعته بمئةِ ألف دينار، وهذا المال الذي ترونه معي من بقايا ذلك المال».

صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل صفحة ٥٧.

٦٦

رجل محسود على نعمته

رفع إلى الرشيد ـ بدمشق، رجلاً من بني أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند يخشى على المملكة منه وكان الرشيد يومئذ بالكوفة قال منارة خادم الرشيد فاستدعاني الرشيد وقال اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وأتني بفلان الأموي وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلاَّ إذا امتنع عليك فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلَّم به واذكر لي حالة مآله وقد أجلتك لذهابك ستاً ولمجيئك ستاً ولإقامتك يوماً أفهمت؟ قلت: نعم قال فسر على بركة الله.

فخرجت أطوي المنازل ليلاً ونهاراً لا أنزل إلاَّ للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق فلما فتح الباب دخلت قاصداً نحو دار الأموي فإذا هي دار عظيمة هائلة ونعمة طائلة وخدم وحشم وهيبة ظاهرة وحشمة وافرة ومصاطب متَّسعة وغلمان فيها جلوس فهجمت على الدار بغير إذن فبهتوا وسألوا عني فقيل لهم إنَّ هذا رسول أمير المؤمنين.

فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواماً محتشمين فظننت أنَّ المطلوب فيهم فسألت عنه فقيل لي هو في الحمام فأكرموني وأجلسوني وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر وأنا أنتقد الدار وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من

الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبّان وحفدة وغلمان فسلّم عليَّ وسألني عن أمير المؤمنين فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدَّم يا منارة كل معنا فتأملت تأملاً كثيراً إذ لم يكنني فقلت ما آكل فلم يعاودني ورأيت مالم أره إلاَّ في دار الخلافة ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيبا ولا أعطر رائحةً ولا أكثر آنية منه فقال تقدَّم يا منارة فكل قلت ليس لي به حاجة فلم يعاودني ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحداً منهم عندي فحرت لكثرة حفدته وعدم من عندي فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلَّى الظهر فأتمَّ الركوع والسجود وأكثر من الركوع بعدها.

فلما فرغ استقبلني وقال ما أقدمك يا منارة فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبَّله ووضعه على رأسه ثم فضَّه وقرأه فلمَّا فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها فطار عقلي وما شككت أنه يريد القبض عليَّ فقال: الطلاق يلزمه والحج والعتق والصدقة وسائر إيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدّم رجليه وقال هات يا منارة قيودك فدعوت الحداد فقيَّده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل وسرنا.

فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدِّثني بانبساط ويقول هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا وهذا البستان لي وفيه غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصّل لي منها كل سنة كذا وكذا فقلت يا هذا ألست تعلم أنَّ أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيداً فريداً وأنت تحدثني حديثاً غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه وكان شغلك بنفسك أولى بك.

فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون لقد أخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة، بهذه المكانة إلا لوفور عقلك فإذا أنت جاهل عمي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء أمَّا خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى فإن كان قد قضى عليَّ بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه وإن لم يكن قد قدر عليَّ بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلاَّ بإذن الله تعالى ومالي ذنب أخاف وإنما هذا واشٍ وشى عند أمير المؤمنين ببهتان وأمير المؤمنين كامل العقل فإذا اطَّلع على براءتي فهو لا يستحل مضرَّتي وعليّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلاَّ جواباً ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا.

فلما دخلت على الرشيد قبَّلت الأرض فقال هات يامنارة أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليَّ فابتدأت أحدِّثه بأموري كلها مفصَّلة والغضب يظهر في وجهه فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم وتفقُّدي لأصحابي فلم أجد منهم أحداً أسودّ وجهه فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه فلما قلت أنه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر فلمَّا أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له وما قال لي قال هذا رجل محسود على نعمته ومكذوب عليه وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله أخرج إليه وأنزع قيوده وفكّه وأدخله عليَّ مكرَّماً ففعلت.

فلمَّا دخل قبَّل الأرض فرحَّب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر إليه فتكلَّم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين سل حوائجك فقال سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي قال هذا كائن فسل غيره قال عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجني إلى سؤال قال فخلع عليه أمير المؤمنين ثم قال يا منارة اركب

الساعة معه حتى تردُّه إلى المكان الذي اخذته منه، قم في حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنًّا وحوائجك فانظر إلى وحسن توكُّله على خالقه فإنَّه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لبَّاه ومن سأله أعطاه ما تمناه.

المستطرف: ١ ـ ٦٥

٦٧

عـدل هشـام وكـرمـه

كان هشام قاعداً لراحته في عِليَّة[١] على النهر في حياة والده، فنظر إلى رجل من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان قد أقبل يُوضِع السير في الهاجرة، فأنكر ذلك، وقدَّر شراً وقع به من قبل أخيه سليمان، وكان والياً على جَيَّان، فأمر بإدخاله عليه، فقال له: مهيم ياكناني، فلأمر ما، وما أحسَبُك إلاَّ مزعَجاً لشيء، دَهَمك.

فقال: نعم ياسيدي، قَتَلَ رجل من قومي رجلاً خطأ، فحملت الدية على العاقلة، فأخذ بها من كنانة عامة، وحُمِلَ عليَّ من بينهم خاصة، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك، فمدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد ياكناني، وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار، فلا تُخْدَعَنَّ عنه، وبعه، وأدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تمكن الرجل من اهتضامك.

فقال: ياسيدي، لم آتك مستجدياً ولا لضيق المال عمَّا حملته، ولكني لما اعتُمِدْت بظلم صُرَاح[٢] أحببت أن يظهر على عِزّ نصرك، وأثر ذبِّك وامتعاضك[٣]، فأتمجَّدَ بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك، فقال هشام:

(١) العلية ـ بكسر العين أو ضمها وتشديد اللام المكسورة ثم ياء مشدَّدة مفتوحة الغرفة فوق غرفة.
(٢) اعتمدت بالبناء المجهول ـ قصدته، والظلم الصراح ـ بضم الصاد ـ الذي لا عدل معه.
(٣) الذب: أراد دفاعه عنه، والامتعاض: أراد ما يظهر من غضبه واستعظام ما وقع عليه.

فما وجه ذلك؟ فقال: أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عني، والقيام بِذمَّتك لي، فقال: أمسك العقد، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أنكره، فانزعج، وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلاَّ أمر مقلق، ائذنوا له، فلمَّا دخل سلَّم عليه، ومَثَلَ قائماً بين يديه، فقال له: اجلس ياهشام، فقال: أصلح الله الأمير سيدي، وكيف جلوسي بهمٍّ وذل مزعج، وحُقَّ لمن قام مقامي أن لا يجلس إلاَّ مطمئناً، ولن يقعدني إلاَّ طيبُ نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلاَّ رَجعْتُ على عَقِبي، فقال له: حاش لك من انقلابك[1] خائباً، فاقعد مُحاباً مُشَفَّعاً فجلس، فقال له أبوه: فما الحدث المقلق؟ فأعلمه، فأمر بحَمْل الديَّة عنه وعن عشيرته من بيت المال، فسُرَّ هشام وأطنب[2] في الشكر، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني بما لم يَدُر في خَلَده.

ولَمَّا دخل الكناني لوَدَاعَ هشام قال له: يا سيدي قد تجاوزتُ بك حَدَّ الأمْنيَّة وبلغت غاية النصر، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة، فتعيده إلى صاحبته، فأبى من ذلك، وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا.

وكان هشام يذهب بسيرته مذهبَ عمر بن عبدالعزيز، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُوَر فيسألون الناس عن سير عُمَّاله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حَيْف[3] من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه، ولم يستعمله بعد.

ولما وصفه زياد بن عبدالرحمن لمالك بن أنس قال: نسأل الله تعالى أن يزين مَوْسمنا بمثل هذا.

---

(١) انقلابك: رجوعك وعودتك.

(٢) أطنب في الشكر: أطال في عبارته وأكثر منه.

(٣) الحيف: الظلم والجور وانتقاص الحق من صاحبه.

وفي أيامه فتحت أُرْبُونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جِلِّيقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أُرْبُونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقُرْطبة، وبني منه المسجدَ الذي قدام باب الحنان، وفضلت منه فضلة بقيت مكوَّمة.

وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له.

وقصد إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد أَلْبَةَ[1] والقلاع، فلقى العدوّ وظفر بهم، وفتح عليه سنة خمس وسبعين وبعض العساكر إلى جِلِّيقية مع يوسف بن نجية[2]، فلقي ملكها ابن مندة، وهزمه، وأثخن في العدو.

نفح الطيب: ١ - ٣١٤.

---

(١) ذكر في الروض «أولية السهلة» وقال: إنها قريبة من قرطبة تعرف بالرملة، وهي أم الأقاليم، كثيرة الأهل، واسعة الخطّة، مثمرة الأرضين، بها ديار للعجم، متّقنة البنيان. وذكر ياقوت «ألية» بضم الهمزة وسكون اللام وياء مفتوحة، وقال: إنه اسم إقليم من نواحي إشبيلية. والموجود في أصول الكتاب «ألبة» بالباء الموحّدة، وهو صحيح.

٦٨

غسان بن عباد وعلي بن عيسى

كان بين غسان بن عباد وعلي بن عيسى عداوةٌ عظيمة، وكان عليّ بن عيسى ضامناً[١] أعمالَ الخَراجِ والضِّياع ببلده؛ فبقيت عليه بقيَّة مبلغها أربعون ألف دينار، فألحَّ المأمون عليه بطَلبِها، إلى أن قال لعلي بن صالح الحاجب: امهِلْهُ ثلاثة أيام؛ فإن أحضَرَ المالَ وإلا فاضْرِبه بالسياط حتى يؤدِّي المال أو يَتْلف.

فانصرف علي بن عيسى من دار المأمون آيساً من نفسه، وهو لا يدري وجهاً يتَّجِه إليه، فقال له كاتبه: لو عرَّجت على غسان بن عباد وعرَّفْتَه خبرك لرجوت أن يعينك على أمرك، فقال له: عَلَى ما بيني وبينه ومن العداوة! قال: نعم، فإن الرجلَ أَرْيَحِيٌّ كريم.

فدخل على غَسَّان، فقام إليه وتلقَّاه بالجميل، وأوفاه حقَّه من الخدمة، ثم قال له: الحالُ الذي بيني وبينك كما علمت، ولكن دخولُك إلى داري له حرمةٌ توجب بلوغ ما رجوته مني، فإن كانت لك حاجةٌ فاذْكُرهَا.

فقصَّ عليه القصَّة؛ فقال أرجو أن يكفيكه الله تعالى، ولم يزد على ذلك شيئاً.

---

(١) ضمن الشيء: كفله.

فنهض علي بن عيسى، وخرج آيساً نادِماً على قَصْدِ غسَّان، وقال لكاتبه: ما أَفَدْتَني بالدخول على غَسَّان غيرَ تعجيل الشماتة والهوان.

فلم يصل علي بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعه البغالُ عليها المال، فتقدَّم وسلَّمه.

وبكَّر إلى دار أمير المؤمنين، فوجد غسان قد سبقَه إليها، ودخل على المأمون وقال: ياأمير المؤمنين؛ إن لعليّ بن عيسى بحضرتك حرمةً وخدمةً وسالفَ أصل، ولقد لحقه من الخسران في ضمانة ما تعارَفَه الناس؛ وقد توعَّدته بضَرْبِ السياط بما أطار عقله وأذهب لُبَّه؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجيزني على حُسْنِ كرمه ببعض ما عليه؛ فهي صنيعة يجددها عليَّ، تَحْرُسُ ما تَقَدَّمها من إحسانه، ولم يزل يتلطَّف إلى أن حطَّ عنه النصف، واقتصر على عشرين ألف دينار.

فقال غسان: على أن يجدِّدَ عليه أميرُ المؤمنين الضمان، ويشرِّفَهُ بِخِلْعَةٍ تقوِّى نفسه، وتُرْهِف عزمه، ويعرف بها مكان الرِّضا عنه، فأجابه المأمون إلى ذلك.

قال: فيأذن أميرُ المؤمنين أن أحملَ الدواةَ إلى حضرته ليوقِّع بما رآه من هذا الإنعام! قال: افعل، فحمل الدواة إلى أمير المؤمنين، فوقَّع بذلك. وخرج علي ابن عيسى بالخِلْعَةِ، والتوقيعُ بيده.

فلما حضر علي بن عيسى إلى دارة حمل من المال عشرين ألف دينار، وأرسلها إلى غسان، وشكر له جميل فعله معه. فقال غسان لكاتبه: والله ما شفعتُ عند أمير المؤمنين إلا لتُوَفَّر عليه وينتفعَ بها؛ فامض بها إليه، فلمَّا ردَّها كاتبه إلى علي بن عيسى علم قدر ما فعل معه غسان، فلم يزل يعرفها له إلى آخر العمر.

ثمرات الأوراق: ٢ ـ ٣٠، قصص العرب: ٣ ـ ٩٠.

٦٩

هكذا يكون العلماء مع الملوك

كان الفقيه أبو إبراهيم مُعَظَّماً عند الناصر وابنه الحكم، وحُقَّ لهما أن يعظماه، وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مُفَرِّج قال: كنت أختلفت إلى الفقيه أبي إبراهيم - رحمه الله تعالى! - فيمن يختلف إليه للتفقُّه والرواية.

فإني لِعنْده في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يصلي به قربَ داره بجوفي قصر قُرْطُبَة، ومجلسُه حافل بجماعة الطلبة، وذلك بين الصلاتين، إذ دخل عليه خَصيّ من أصحاب الرسائل، جاء من عند الخليفة الحكم، فوقف وسلَّم، وقال له: يا فقيهُ، أجِبْ أمير المؤمنين أبقاه الله، فإنَّ الأمر خرج فيك(١)، وها هو قاعد ينتظرك، وقد أمرت بإعجالك، فالله الله، فقال له: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين، ولا عجلَةَ، فارجع إليه وعرِّفه وفقه الله عني إنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طُلاب العلم أسمِعُهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ، فهم يُقَيِّدُونه عني، وليس يمكنني تركُ ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته، فذلك أوكد من مَسيري إليه الساعَةَ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إليَّ من هؤلاء المحتسبين(٢) في ذات الله الساعين لمرضاته مشيتُ إليه إن شاء الله تعالى، ثم أقبل على شأنه.

---

(١) يريد أن الأمر صدر من أمير المؤمنين وخرج إليَّ لأنفذه.
(٢) المحتسبين: الذين لا يبغون علي ما يصنعون أجراً إلاَّ من الله تعالى.

ومضى الخصي يُهَينم[١] متضاجراً من توقفه، فلم يك إلا ريثما أدَّى جوابه، وانصرف سريعاً ساكن الطيش، فقال له: يا فقيه: أنهيْتُ قولك[٢] على نَصِّه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله، فأصغى إليه، وهو يقول لك: جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين! وأمتعهم بك! وإذا أنت أوعيت[٣] فامض إليه راشداً إن شاء الله تعالى، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضي شغلك وتمضي معي، فقال له: حسن جميل، ولكني أضْعُف عن المشي إلى باب السُّدَّة، ويصعب عليَّ ركوب دابَّة لشيخوختي وضعف أعضائي، وبابُ الصناعة الذي يقرب إليَّ من أبواب القصر المكرَّم أحوط لي ويقرب وأرفق بي، فإذا رأى أميرُ المؤمنين ـ أيَّده الله تعالى! ـ أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هوَّن عليَّ المشي، وَوَدُعَ جسمي[٤]، وأحب أن تعود وتُنهي إليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه، وكذلك تعود إليَّ فإني أراك فتى سديداً، فكن على الخير مُعيناً ومضى عنه الفتى، ثم رجع بعد حين وقال: يا فقيه، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت، وأمر بفَتْح باب الصناعة وانتظارك من قبله، ومنه خرجت إليك، وأمرت بملازمتك مذكراً بالنهوض عند فراغك، وقال: افعل راشداً، وجلس الخصيُّ جانباً، حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادتُه غيرَ منزعج ولا قَلِق، فلمّا انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب، وقضى حاجته من لقائه،غ ثم صرفه على ذلك الباب، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه، قال ابنُ مفرِّج: ولقد تعمدنا في تلك العَشية إثر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقهُ بدُبْرِ القصر لنرى

---

(١) يهينم: يتكلَّم بصوت خفي لا يسمعه أحد عنه.

(٢) أنهيت قولك: أبلغته.

(٣) أوعيت: يريد أبلغت ما عندك إلى تلاميذك فوعوه وحفظوه عنك.

(٤) تقول «ودع فلان» بضم الدال من باب كرم وبفتحها من باب فتح ـ إذا سكن واستراح واستقر.

تجشم[1] الخليفة له، فوجدناه مفتوحاً كما وصف الخصي، وقد حَفَّهُ الخدم والأعوان منزعجين ما بين كَنَّاس وفرَّاش متأهِّبين[2] لانتظار أبي إبراهيم، فاشتدَّ عجبنا لذلك، وطال تحدُّثُنا عنه، انتهى، فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك مع العلماء، قدَّس الله تلك الأرواح.

نفح الطيب: ١ ـ ٣٥٣.

(١) تجشَّمت لهذا الأمر: تكلَّفت له.
(٢) تأهَّب فلان لكذا: استعدَّ له.

(٧٠)

عطية رسول الله ﷺ
بين الوزير علي بن عيسى
والعطار الكرخي

حدَّثني جماعة من أهل الحضرة:

أنَّ رجلاً من أهل الكرخ[١]، كان مشهوراً بالستر، ارتكبه دين فقام[٢] من دكانه ولزم منزله وأقبل على الدعاء والصلاة ليالي كثيرة.

فلما كان ليلة جمعة، وصلَّى صلاته، ودعا ونام.

قال: فرأيت النبي ﷺ في منامي، وهو يقول لي: اقصد عليّ بن عيسى الوزير[٣]، فقد أمرته لك بأربعمائة دينار، فخذها، وأصلح بها أمرك.

قال: وكان عليّ قيمة ستمائة دينار.

---

(١) الكرخ في وقتنا هذا يطلق على الجزء الغربي من بغداد، ويفصله عن الجزء الشرقي نهر دجلة، أما في القديم فقد ذكر معجم البلدان (٢٥٤/٤) أن الكرخ محله من محلات الجانب الغربي مفردة وحدها، وكانت وقت عمران بغداد في وسط البلد ثم خرب ما حولها، وبقيت مفردة وسط الخراب، وحولها محال إلا أنها غير مختلطة بها، فبين شرقيها والقبلة محلّة باب البصرة، وفي جنوبها محلّة نهر القلائين، وعن يسار قبلتها محلة باب المحول، وفي قبلتها نهر الصراة.

(٢) قام: اصطلاح بغدادي، لم يزل مستعملاً، يقال: قام التاجر، إذا أغلق دكّانه، وتأخر عن سداد ديونه.

(٣) الوزير علي بن عيسى: ترجمته في حاشية القصة ١٤/١ من النشوار.

فلما كان من غد، قلت: قد قال رسول الله ﷺ، من رآني في المنام، فقد رآني، لأن الشيطان لا يتمثّل بي، فلم لا أقصد الوزير؟.

قال: فقصدته، فلما جئت إلى الباب، منعت من الوصول إليه، فجلست إلى أن ضاق صدري، وهممت بالانصراف، فخرج الشافعيّ[1] صاحبه، وكان يعرفني معرفة ضعيفة، فأخبرته الخبر.

فقال: ياهذا، إن الوزير، والله، في طلبك منذ السَّحَرِ، وإلى الآن، وقد سُئلت عنك، فما عرفتك، وما عرَّفنيك أحد، والرسل مبثوثة في طلبك، فكن مكانك.

قال: ومضى، فدخل، فما كان أسرع من أن دعوني، فدخلت إلى أبي الحسن عليّ بن عيسى.

فقال: ما اسمك؟

قلت: فلان ابن فلان العطَّار.

قال: من أهل الكرخ؟

قلت: نعم.

قال: ياهذا أحسن الله جزاءك في قصدك إيَّاي، فوالله ما تمنَّيت بعيش منذ البارحة، جاءني رسول الله ﷺ، في منامي ، فقال: أعط فلان بن فلان العطَّار في الكرخ أربعمائة دينار، يصلح بها شأنه، وكنت اليوم، طول نهاري، في طلبك، وما عرَّفنيك أحد.

ثم قال: هاتم ألف دينار فجاءوا بها عيناً.

---

(١) الشافعي: أبو بكر محمد بن عبدالله: ترجمته في حاشية القصة ١/٣٥ من النشوار.

فقال: خذ منها أربعمائة دينار، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ. وستمائة دينار، هبة مني لك.

فقلت: أيُّها الوزير ما أحبَّ أن أزاد[1] على عطيَّة رسول الله ﷺ عليه شيئاً، فإنِّي أرجو البركة فيها، لا فيما عداها.

فبكى عليّ بن عيسى، وقال: هذا هو اليقين، خذ ما بدا لك. فأخذت أربعمائة دينار، وانصرفت.

فَقَصَصْتُ قصَّتي على صديق لي، وأريته الدنانير، وسألته أن يحضر غرمائي، ويتوسَّط بيني وبينهم، ففَعَلَ.

وقالوا: نحن نؤخِّر ثلاث سنين بالمال، فليفتح دكَّانه.

فقلت: لا، بل يأخذون مني الثلث من أموالهم، وكانت ستمائة.

فأعطيت كل من له شيء، ثُلثَ ماله، وكان الذي فَرَّقْتُهُ مائتي دينار.

وفتحت دكاني[2]، وأردت المائتين الباقية في الدكان، فما حال الحول عليَّ، إلا ومعي ألف دينار.

فقضيت ديني كلَّه، ومازال مالي يزيد، وحالي تصلح.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ٢ - ٢٤٣.

---

(١) في ب و ط: ازداد.

(٢) الدكان: فارسية، دكه كالمصطبة يقعد عليها، ثم استعملت الكلمة للحانوت الصغيرة، لأنَّ صاحبه يجلس في صدره على دكَّة، والبغداديون يسمون الحانوت الصغير: دكاناً، فإن كبر، سمُّوه: مغازة، والكلمة محرفة عن الإفرنجية Magasine المنقولة عن الكلمة العربية: مخزن.

٧١

انقياد الخليفة لحكم الله

من أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر في إنكاره عليه الإسرافَ في البناء، أنَّ الناصر كان اتَّخذ لسطح القبيبة المصغَّرة الاسم للخصوصيَّة التي كانت مائلة على الصرْح المرد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضَّة أنفق عليها مالاً جسيماً، وقَرْمَدَ سقفها به، وجعل سقفها صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، تستلب[1] الأبصار بأشعة نورها،

وجلس فيها أثر تمامها يوماً لأهل مملكته، فقال لقرابته ومَنْ حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتَّانة: هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قَدَرَ عليه؟ فقالوا: لا والله ياأمير المؤمنين، وإنك لأوحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره، فأبهجه قولهم وسرَّه،

وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس، فلمَّا أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أنَّ الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا

(١) في أصل ١ «تسلب الأبصار».

التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضًلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، قال: فانفعل عبدالرحمن لقوله، وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلني منزلتهم؟ قال: نعم، أليس الله تعالى يقول: ﴿**ولولا أن يكون الناس أمَّة واحدة**﴾ الآية.

فوجم الخليفة، وأطرق مَليًّاً ودموعه تتساقط خشوعاً لله تعالى [قال الحاكي]: ثم أقبل على منذر وقال له: جازاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجلَّ جزائه، وكثّر في الناس أمثالك! فالذي قلت هو الحق، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمره بنَقْض سقف القبيبة، وأعاد قرمدها تراباً على صفة غيرها، انتهى ما حكاه ابن الحسن النُّباهي.

نفح الطيب: ٢ ـ ١٠٨.

٧٢

عدل القاضي محمد بن بشير

يحكى أنَّ سعيد الخير ابن السلطانعبدالرحمن الداخل وَكَّلَ عند ابن بشير وكيلاً يخاصم عنه لشيء اضطر إليه، وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا، ولم يكن فيها من الأحياء إلاَّ الأمير الحكم وشاهد آخر مبرز، فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد، وضُرِبَت على وكيله الآجال في شاهد ثانٍ، وجَدَّ به الخصام.

فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الحكم وأراه شهادته في الوثيقة، وقد كان كتبها قبل الخلافة في حياة أبيه، وعرَّفه مكان حاجته إلى أدائها عند قاضية خوفاً من بطلان حقه، وكان الحَكَم يعظم سعيد الخير عَمَّه، ويلتزم مبرته، فقال له: ياعم، إنَّا لسنا من أهل الشهادات، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله، ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقف مَخْزاة كنا نفديه بملكنا. فصِرْ في خصامك حيث صيَّرك الحق إليه، وعلينا خَلَفُ ما انتقصك، فأبى عليه، وقال: سبحان الله! وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك؟ وأنت وَلَّيه، وهو حسنة من حسناتك، وقد لزمتك في الديانة أن تشهد لي بما علمته، ولا تكتمني ما أخذ الله عليك! فقال: بلى، إنَّ ذلك لمن حقك كما تقول ولكنَّك تدخل علينا به داخلة، فإن أعفيتنا منه فهو أحبُّ إلينا، وإن اضطررتنا لم يمكنا عقوقك، فعزم عليه عَزْمَ من لم يشكَّ أنْ قد ظفر بحاجته، وضايقته الآجال، فألحَّ عليه، فأرسل الحكم

عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه، وخطَّ شهادته بيده في قرطاس، وختم عليها بخاتمة، ودفعها إلى الفقيهين وقال لهما: هذه شهادتي بخطي تحت ختمي، فأدياها إلى القاضي، فأَتَيَاه بها إلى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود، فأدَّياها إليه، فقال لهما: قد سمعت منكما فقوما راشدين في حفظ الله تعالى.

وجاء وكيل سعيد الخير، وتقدَّم إليه مُدلاً واثقاً، وقال له: أيها القاضي، قد شهد عندك الأمير - أصلحه الله تعالى! - فما تقول؟ فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه، ثم قال للوكيل: هذه شهادة لا تعمل عندي[٢]، فجئني بشاهد عَدْل، فدُهش الوكيل، ومضى إلى سعيد الخير فأعلمه، فركب من فوره إلى الحكم، وقال: ذهب سلطاننا، وأزيل بهاؤنا، يجترىء هذا القاضي على رد شهادتك، والله سبحانه قد استخلفك على عباده، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك؟ هذا ما يجب[٣] أن تحمله عليه، وجعل يُغْريه بالقاضي ويحرِّضه على الإيقاع به،

فقال له الحكم: وهل شككت أنا في هذا يا عم؟ القاضي رجل صالح والله، لا تأخذه في الله لَوْمَة لائم، فعل ما يجب عليه ويلزمه، وسَدَّ دونه باباً كان يصعب عليه الدخول منه، فأَحْسَنَ الله تعالى جزاءه! فغضب سعيد الخير، وقال: هذا حسبي منك، فقال له: نعم قد قضيت الذي كان لك علي، ولست والله أعارض القاضي فيما-احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله.

ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه: ياعاجز، أما تعلم أنَّه لابدَّ من الإعذار في الشهادات، فمن كان يجترىء على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها؟.

نفح الطيب: ٢ - ٣٤٦.

---

(٢) في نسخة «لاتقبل عندي».

(٣) في يصل أ (هذا ما لا يجب أن تحمله عليه».

٧٣

أمانة العالم قول الحق

قال ابن أصبغ الهمداني والفتح في المطمح: كان الناصر كَلِفاً بعمارة الأرض، وإقامة معالمها، وانبساط مجاهلها، واستجلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار الدالة على قوّة الملك وعزّة السلطان وعلوّ الهمّة، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره، الذائع خبره، المنتشر صيته في الأرض، واستفرغ جهده في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتّخذ ثلاث جمع متواليات.

فأراد القاضي منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير بالإنابة والرجوع، فابتدأ في أول خطبته بقول تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴾(١) ثم وصله بقوله: فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتّقى، وهي دار القرار، ومكان الجزاء، ومضى في ذم تشييد البنيان، والاستغراق في زخرفته، والإسراف في الإنفاق عليه، بكل كلام جَزْل، وقول فاصل ، قال الحاكي: فجرى فيه طلقاً، وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾(٢) إله آخر الآية وأتى بما يُشا كل المعنى من التخويف بالموت،

(١) سورة الشعراء: الآية ١٢٨ ـ ١٣٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٩.

والتحذير من فجأته، والدعاء إلى الزهد في هذه الدار الفانية، والحض على اعتزالها، والرفض لها، والندب إلى الإعراض عنها، والإقصار عن طلب اللذَّات، ونهي النفس عن اتباع هواها، فأسهب في ذلك كله، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله، حتى أذكر مَنْ حضره من الناس وخَشَعوا ورقُّوا واعترفوا وبكوا وضجُّوا ودعوا وأعلنوا التضرُّع إلى الله تعالى في التوبة والابتهال في المغفرة.

وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود به، فبكى وندم على ما يلف له من فرطه، واستعاذ الله من سخطه، إلَّا أنه وَجَدَ على منذر لغلظ ماقَرَّعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر، وقال: والله لقد تعمدني مُنْذر بخطبته، وما عَنَى بها غيري، فأسرف عليّ، وأفرط في تقريعي وتفزيعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني، واستشاط غيظاً عليه فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاةالجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراءَ أحمد بن مطرّف صاحب الصلاة بقرطبة، ويُجَانب الصلاة بالزهراء،

وقال له الحكم: فما الذي يمنعك من عَزْل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟! فزجره وانتهره، وقال له: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه لا أم لك يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في وَرَعه وصدقه، ولكنه أحرجني، فأقسمت، ولوددت أني أجد سبيلا إلى كفارة يميني بملكي، بل يُصَلي بالناس حياتَه وحياتَنا إن شاء الله، فما أظننا نعتاض منه أبداً.

وقيل: إنَّ الحكم اعتذر عمَّا قال منذر، وقال يا أمير المؤمنين، إنه رجل صالح، وما أراد إلَّا خيراً، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك، فأمر حينئذٍ الناصر بالقصور ففرشت، وفرش ذلك المجلس بأصناف فرش الديباج،

وأمر بالأطعمة، وقد أحضر العلماء وغَصَّ بهم المجلس، فدخل منذر في آخرهم، فأومأ إليه الناصر أن يقعد بقربه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما يَقْعُد الرجل حيث انتهى به المجلس ولا يتخطَّى الرقاب، فجلس في آخر الناس وعليه ثياب رَثَّة.

نفح الطيب: ٢ - ١٠٥.

٧٤

الخليفة الناصر ينقاد للحق

احتاج الخليفة الناصر إلى شراء دار بقُرْطبة لحظِيَّة من نسائه تَكْرُم عليه، فوقع استحسانُه على دار كانت لأولاد زكريا أخي نَجْدَةَ، وكانت بقرب النشارين في الرَّبَض الشرقي منفصلة عن دوره، ويتصل بها حَمَّام له غلَّة واسعة، وكان أولاد زكريا أخي نَجْدة أيتاماً في حجر القاضي.

فأرسل الخليفةُ من قوّمها له بعدد ما طابت نفسه، وأرسل ناساً أمَرَهُم بمداخلة وصي الأيتام في بَيْعها عليهم، فذكر أنه لا يجوز إلاَّ بأمر القاضي، إذ لم يجز بيع الأصل إلاَّ عن رأيه ومَشُورته.

فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع هذه الدار، فقال لرسوله: البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه: منها الحاجة، ومنها الوَهْى الشديد، ومنها الغبطة(١)، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء(٢) الأيتام إلى البيع، وأما الوَهْى فليس فيها، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أميرُ المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع، وإلاَّ فلا، فنقل جوابه إلى الخليفة، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً أن يتوخّى رغبته فيها.

---

(١) الغبطة: أراد الحظ والمنفعة الظاهرة، كأن يكون الثمن أكثر من ثمن المثل بكثير، سمي بذلك لأنه مما يغبطهم الناس عليه.

(٢) في ب «فلا حاجة بهذه الأيتام».

وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام ثورتها، فأمر وصيَّ الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها، ففعل ذلك وباع الأنقاض، فكانت لها قيمة أكثر مما قوِّمت به للسلطان، فاتصل الخبر به، فعزَّ عليه خرابها، وأمر بتوقيف الوصي على ما أحدثه فيها، فأحال الوصي على القاضي أنه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضي مُنْذر، وقال له: أنت أمرت بنقض دار أخي نَجْدة؟ فقال له: نعم، فقال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: أخذت فيها بقول الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الكهف ٧٩ مُقَومِوك لم يقوموها[1] إلا بكذا، وبذلك تعلق وَهْمُك، فقد نَضَّ[2] في أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمام فَضْلاً، ونظر الله تعالى للأيتام، فصبر الخليفة عبدُ الرحمن على ما أتى من ذلك، وقال: نحن أولى مَنِ انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنّا وعن أمانتك خيراً.

نفح الطيب: ٢ - ٢٢٣.

---

(١) في أ «لم يقدروها».

(٢) نض: حصل، وهو بالضاد المعجَّمة كما في أ.

٧٥

ذكاء المنصور في إعادة الحق لأصحابه

يحكى أنَّ رجلاً جوهرياً من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عَدَن بجوهر كثير وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى التاجر الجوهري صُرَّته، وكانت قطعة يمانية.

فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها واليومُ قائظ وعَرَقه صبٌّ دَعَته نفسه إلى التبرد في النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرَّة[1] على الشط، فمرَّت حِدَأة فاختطفت الصرة تحسبها لحماً، وصارت[2] في الأفق بها ذاهبة، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عينُ التاجر، فقامت قيامته، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة فأسرَّ الحزن في نفسه، ولحقه لأجل ذلك علَّة اضطرب فيها.

وحضر الدفع إلى التجَّار فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان للمنصور ما بالرجل[3] من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدَّة العارضة،

---

(١) في نسخة عند أ. «وترك الصرة على الشط».
(٢) في أ «وصاعدت في الأفق».
(٣) في نسخة عند أ «ما نال الرجل».

فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هلا أتيت إلينا بِحدْثَان وقوع الأمر فكنَّا نستظهر على الحيلة، فهل هُديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها، قال: مَرَّ مشرقاً على سَمْت هذا الجبل الذي يلي قصرك، يعني الرملة.

فدعا المنصور شُرْطِيَّة الخاص به، فقال له: جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى وجاء بهم سريعاً، **فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم سريعاً**، وانتقل عن الإضافة دون تدريج، فتناظروا في ذلك ثم قالوا: يا مولانا ما نعلم إلَّا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ويتناولون السَّبْق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة، فابتاع اليومَ دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة، فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور، فاستدناه والتاجر حاضر، وقال له: سَبَب ضاع منا وسقط إليك، ما فعلت به؟ قال: هوذا يا مولاي، وضرب بيده إلى حُجْزَة[1] سرَاويله فأخرج الصرَّة بعينها، فصاح التاجر طَرَباً، وكاد يطير فرحاً، فقال: بَيْنَا أنا أعمل في جِنَاني تحت نخلة إذ سقطت أمامي، فأخذتها وراقني منظرها، فقلت: إنَّ الطائر اختلسها من قَصْرك لقرب الجوار، فاحترزت بها، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة، وقلت: أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صرَّتك وانظرها واصدقني عن عددها، ففعل وقال: وحقِّ رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له، فقال له المنصور: **نحن أولى بذلك منك ولا نُنَغص عليك فرحك**، ولولا جَمْعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه،

---

(١) في أ «حجرة سراويله» وحجزه السراويل ـ بالزاي ـ الموضع الذي تكون فيه تكة السراويل، ويقولون «فلان طيب الحجزة» يريدون أنه عف، كقولهم: هو طاهر الإزار، ونقي الثوب.

ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره، وللجَنَّان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن فساد ما وقع بيده، وقال: لو بَدَأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء.

قال: فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه وقال: والله لابثنَّ في الأقطار عظيم ملكك، ولأبينَنَّ أنك تملك طير أعمالك كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك ولا تمتنع، ولا تؤذي جارك، فضحك المنصور وقال: اقصد في قولك يغفر الله لك، فعجب الناس من تلطُّف المنصور في أمره وحيلته في تفريج كربته.

نفح الطيب: ١ ـ ٣٣٨.

٧٦

لا أفلح قاض لا يقيم الحق

كان عبيد ظبيان[١] قاضي الرشيد بالرَّقَّة ـ وكان الرشيد إذ ذاك بها ـ فجاء رجلٌ إلى القاضي، فاستعداه[٢] على عيسى بن جعفر، فكتب إليه القاضي ابن ظبيان: «أمَّا بعد، أبقى الله الأمير وحفظه وأتمَّ نعمته، فقد أتاني رجل فذكر أنه فلان ابن فلان، وأن له على الأمير ـ أبقاه الله تعالى ـ خمسمائة ألف درهم، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحكم، أو يوكِّل وكيلاً يناظر خَصْمَه، أو يرضيه فعل».

ودفع الكتابَ إلى رجل، فأتى بابَ ابن جعفر، فدفع الكتاب إلى خادِمه، فأَوْصَله إليه، فقال له: قل له: كُلْ هذا الكتاب.

فرجع الرجل إلى القاضي؛ فأخبره، فكتب إليه: «أبقاك الله وأَمْتَع[٣] بك، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان، وذكر أنَّ له عليك حقّاً، فسِرْ معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى».

ووجَّه الكتابَ مع عونين[٤] من أعوانه، فحضر باب عيسى بن جعفر،

---

(١) قاضي الرقة.
(٢) استعديت القاضي على الظالم: طلبت منه النصرة.
(٣) أبقاك الله ليستمتع بك.
(٤) العون: الظهير.

ودفعا الكتاب إليه فغضب، ورمى به. فانطلقا، فأخبراه فكتب إليه: «حفظك الله وأَمْتَعَ بك، لابدُّ أن تصير أنت أو وكيلُك إلى مجلس الحكم، فإن أبيتَ أنهيتُ أمرك إلى أمير المؤمنين - إن شاء الله».

ثمَّ وجَّه الكتابَ مع رجلين من أصحابه، فَقَعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع؛ فقاما إليه، ودفعا إليه كتابَ لقاضي، فلم يقرأه، ورمى به، فعَادَا فأبلغاه ذلك، فختم قِمَطْرة[1]، وأغلق بَابَه، وقعد في بيته.

فبلغ الخبرُ إلى الرشيد فدعاه، وسأله عن أمره، فأخبره الخبر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أعفني من هذه الولاية، فوالله لا أَفْلَحَ قاضٍ لا يُقيم الحقَّ على القويّ والضعيف، فقال له الرشيد: مَنْ يمنَعُك من إقامةِ الحق؟ فقال: عيسى بن جعفر، فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان: سرْ إلى دار عيسى بن جعفر، واخْتِم أبوابَه كلها، لا يخرج منها أحدٌ، ولا يدخل إليها أحد، حتى يخرجَ إلى الرجلِ من حقِّه، أو يسيرَ معه إلى مجلسِ الحُكْم.

فأرسل إبراهيم إلى دار ابْن جعفر بخمسمائة فارس، وأغلق الأبواب كلَّها، فتوهَّم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأيٌ في قتله، ولم يعرف الخبر، فجعل يكلِّم الأعوانَ من خَلْف الباب. وارتفع الصُّرَاخ في منزله، وضجَّ النساء.

ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم: ادعُ لي أبا إسحاق لأُكَلِّمه، فأعلموه، فجاء حتى وقفَ على الباب، فقال له عيسى: وَيْحَكَ! ما حالُنا؟ فأخبره خبر القاضي ابن ظبيان، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأُحضرت، وأمر أن تُدْفَع إلى الرجل. فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره. فقال: إذا قبض الرجلُ ماله، فافتح أبوابه، وعرِّفه أنَّ ما رأيتَه من سيرتك مع القاضي؛ فإياك ومعارضته.

العقد الفريد للملك السعيد، قصص العرب: ٣-٧٨.

(١) القمطر: ما يصان فيه الكتب.

٧٧

عودة الحق لأهله
ولو بعد حين

قال أبو مروان الدقيقي كنت جاراً لشريك بن عبدالله بالكوفة. وكانت امرأة من العرب جارة لنا رهنت طرازاً لها عند قوم على أن يَستأدوا الغلَّة، ويحسبوا لها. قال: فاستأدوا حتى استوفوا ما كان لهم، فطالبتهم بالطراز، فقالوا: الطراز لنا، والشراء شراؤنا.

فصاروا إلى شريك. وشهد الشهود عند شريك بأنه شراء؛ فوجَّه شريك إلى السكان أن أوقفوا الغلَّة حتى يأتيكم أمري. ثم وجَّه فسأل عن الشهود؟ فعدَّلوهم فحكم للذي ادعى أنه شراء، وحكم وكتب على المرأة بالقضية.

فقامت المرأة إلى شريك، فقالت له: أيْتم الله ولدك، وقطع أرزاقهم من السماء، كما قطعت رزق ولدي. فوقع في قلب شريك من قولها ما أزعجه وأقلقه. فبعث إلى جار له يلبس خزاً وهَطراً ـ يعني الصوف والقطن ـ فاستعار كساءه ولبسه، وجاء إلى ذلك الطِّرَاز، فقال للحائك الذي فيه: أتأذن لي أن أدخل أَتَبَرَّدُ عندك؟ فأذن له الحائك بالدخول. فدخل، فسأله شريك عن خبر الطراز؟ فقال له: كنَّا في حديث هذا الطراز قبل دخولك إلينا. وذلك: أني ساكن في هذا منذ ثلاثين سنة، وهو لامرأة من العرب احتاجت، فرهنته عند هؤلاء القوم على أن يأخذوا من الغلَّة ما أعطوها، ثم يطلقوا لها الطراز. فحكم

فيه القاضي ـ أعمى الله قلبه، وقطع الله رزقه ـ لهؤلاء الظالمين . وقد علمتُ أنَّ هذا الشي لهذه المرأة المسكينة. وقلت لوالدي: لا يحل لي الصلاة في هذا الموضع. فقم بنا نتحول.

فقام شريك؛ فتوجَّه إلى منزله، ثم وجَّه إلى القوم وأحضرهم، وأحضر البيِّنة، قال للبيِّنة: تفقَّدوا الشهادات، كيف تشهدون؟ أمَّا أنتم فقد شهدتم بما علمتم، وقد وقع إليَّ خبر الطراز. وقال للذين حكم لهم: إن استقلتموني أقتلكم، وإلاَّ كتبت إلى أمير المؤمنين بما استقرَّ عندي، ورفعتكم مع البيِّنة إلى الخليفة، فيحكم بما يرى ـ وكان المهدي ـ فقالوا: ما وقع إليك أيها القاضي؟ فأخبرهم بالقصة التي سأل عنها. فاستقالوه. فأقالهم. فهم لورثة المرأة إلى هذه الغاية.

طبقات الحنابلة: ١ ـ ٥٩.

(٧٨)

معن بن زائدة والأسود

قال معنُ بن زائدة: لمَّا هربتُ[١] من المنصور خرجتُ من باب حرب، بعد أن أقمتُ في الشمس أياماً، وخفَّفْتُ لحيتي وعارضيّ، ولبِسْتُ جُبَّةَ صوفٍ غليظة، وركبتُ جَملاً، وخرجتُ عليه لأمضيَ إلى البادية، فتَبعني أسود متقلّدٌ سيفاً، حتى إذا غِبْتُ عن الحرس، قبض على خطَام[٢] الجمل فأناخَه، وقَبَض عَليَّ، فقلت: ما شأنُك؟ فقال: أنتَ بُغيةُ أمير المؤمنين! فقلتُ له: ومَنْ أنا حتى يطلبَني أميرُ المؤمنين؟ فقال: معنُ بن زائدة. فقلت: ياهذا، اتق الله! وأين أنا من مَعْن؟ فقال: دَعْ هذا عنكَ، فأنا والله أعرفُ بك. فقلت له: فإن كانت القصَّةُ كما تقول، فهذا جوهر حملتهُ معي بأضعافِ ما بذَله المنصور لمن جاءه بي، فخذه ولا تَسْفِك دمي.

فقال: هاتِه، فأخرجْتُه إليه، فنظر إليه ساعةً؛ وقال: صدقتَ في قيمتِه، ولستُ قابلَه حتى أسألك عن شيء، فإن صدقْتني أطْلَقْتُكَ؛ فقلت: قل: فقال: إنَّ الناس وصَفُوك بالجود، فأَخبرني: هل وهبتَ قطّ مالَك كلّه؟ قلتُ: لا، قال: فنصفَه؟ قلت: لا، قال: فثلثَه؟ قلت: لا؛ حتى بلغ العشْر، فاستحيَيْتُ،

(١) كان سبب غضب المنصور أن معنا كان منقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة في عهد بني أمية، فلما كان عهد المنصور وجرى القتال بين المنصور ويزيد انضم معن إلى يزيد وأبلى بلاء حسناً حتى قتل يزيد، فهرب معن وطلبه المنصور ثم عفا عنه بعد ذلك.

(٢) خطام الجمل: كل حبل يعلَّق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه.

وقلتُ: أظنّ أني قد فعلت هذا! فقال: ما ذاك بعظيم! أنا والله رَاجل[1] ورِزقِي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألفُ دينار، وقد وهبته لك، ووهبتُك لنفسك، ولجودِك المأثور بين الناس! ولتعلمَ أنَّ في الدنيا مَن هو أجودُ منك، فلا تعجبك نفسك، ولتُحقِّر بعد هذا كلَّ شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكْرُمة، ثم رمى بالعدل إليَّ، وخلى خطامَ الجمل وانصرف.

فقلت: يا هذا! قد فَضَحْتَني، ولسَفكُ دمي أهونْ عليَّ مما فعلتَ، فخذ ما دَفعتُه إليك، فإني عنه في غنى؛ فضحك، ثم قال: أردتَ أن تكذبني في مقامي هذا! فوالله لا آخذُه، ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً، ومضى.

فوالله لقد طلبته بعد أن أَمِنْتُ، وبذلتُ لمن يجيء به ما شاء، فما عرفتُ له خبراً، وكأنَّ الأرض ابتعلته.

نهاية الأرب: ٣ - ١١، عصر المأمون: ٢ - ١٩٧،
قصص العرب: ١/٢٥٢.

٧٩

وامعتصماه

وقف رجلُ على المعتصم(١) فقال: يا أمير المؤمنين؛ كنت بعمُّورِيَة(٢) وجاريةٌ من أحسنِ النساء سيرةً، لقد لطمها عِلْجٌ(٣) في وجهها. فنادتْ: وَامُعْتَصِماه! فقال العِلْج: وما يقدرُ عليه المعتصمُ! يجيءُ على أَبْلَق وينصرك! وزاد ضَرْبها.

فقال المعتصم: وفي أي جهة عمّورية؟ فقال له الرجل - وأشار إلى جهتها: ها هي ذي؛ فردّ المعتصم وجْهَة إليها، وقال: لَبَّيْكِ أيتها الجارية، لَبَّيْكِ؛ هذا المعتصم بالله أجابك، ثم تجهَّز إليها في اثنى عشر ألف فرس أَبْلَق، وحاصرها.

ولما طال مُقامه عليها جمع المنجِّمين فقالوا له: إنَّا نَرى أنك ما تَفْتحها إلا في زمان نُضج العنب والتين، فشقَّ عليه ذلك واغتمَّ، وخرج ليلةً مع بْعض حَشَمِة متجسِّساً في العسكر يسمع ما يقول الناس، فمرَّ بخيمة حدَّاد يضرب نِعَال الخيل، وبين يديه غلام أقرعُ قبيحُ الصورة، وهو يضرب على السِّندان ويقول: في رأس المعتصم! فقال له معلمه: اتْرُكْنا من هذا، ما لك وللمعتصم! فقال: ما عنده تَدْبير، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة مع قُوَّته ولا يفتحها! لَوْ أعطاني الأمر ما بات غداً إلاَّ فيها.

---

(١) خليفة من أعاظم خلفاء الدولة العباسية وهو فاتح عمورية توفي سنة ٢٢٧هـ.

(٢) عمورية: بلدة من بلاد الروم.

(٣) العلج: الواحد من كفار العجم.

فتعجب المعتصمُ مما سمع، وترك بعضَ رجاله موكَّلاً به، وانصرف إلى خبائه، فلما أصبح جاءُوا به، فقال: ما حملك ياهذا على ما بلغني عنك؟ فقال الرجل. الذي بلغك حقّ، ولو ولَّيْتَني الحرب فإني أرجو أن يفتحَ الله عليك. فقال: قد ولَّيْتُك، وخلع عليه وقدَّمه على الحرب، ففتح الله عليه، ودخل المعتصم المدينة ولم يثبت قولُ المنجمين.

ثم دعا بالرجل الذي بلَّغه حديثَ الجارية، فقال له: سِرْ بي إلى الموضع الذي رأيتَها فيه، فسار به، وأخرجها من موضعها، وقال لها: يا جارية، هل أجَابَكِ المعتصم؟ ثم ملَّكها العِلْجَ الذي لَطمها، والسَّيِّد الذي كان يملكها وجميع ماله[1].

محاضرات الأبرار: ٢ ـ ٦٣،
قصص العرب: ٣ ـ ٤٤٩.

---

(١) وفي هذه يقول أبو تمام قصيدته:

السيف أصدق انباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

ثم عرض بتاريخ المنجمين في التين والعنب فقال:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... جلودهم قبل نضج التين والعنب

٨٠

من المحاسن والمساوىء

قال محدِّث:

مدح شاعر أبا حاتم كاتب الديوان، فلم يصله شيء، فأنشأ شعراً يقول فيه:

لـتُـنْـصِـفَـنّـي يـا أبـا حـاتِـم　　　أو لأصـيـرَنَّ إلـى حـاكِـم

فاحتفظها صاحب الخبر، ورفعها إلى الرشيد، فقال: **صدق؛ لولا أني نائم ما كانت أموري تجري على هذا السبيل**، وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه، فأوَّل ما وجد على منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم.

فحدَّث صالح صاحب المصلَّي، قال: دعاني الرشيد وهو على كرسي، فقال: اذهب الساعة، فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم، فإن لم يؤدها إلى المغرب فاضرب عنقه، وجئتني برأسه، وأنا نَفِيٌّ[1] من المهدي، لئن أنت دافعت عنه لأضربنَّ عنقك، قلت: ياسيِّدي، فإن أعطاني بعضها ووقت لي في بعضها وقتاً؟ قال: لا.

فأعلمته الخبر فأسقط في يده، وقال: ما أراد إلَّا قتلي!! لأنه يعلم أنَّ مقدار مالي لا يبلغ ما به طالبني، ولكن، **تأذن لي أن أدخل بيتي فأودع أهلي؟!**

---

(١) فلان تقي: دعى، قد نفى.

فأذَنت له، فدخل ودخلت معه، وبقيت واقفاً؛ فبعث إلى أمهات أولاده وبناته ونسائه أن أخرجن إليَّ كما كنتنَّ تخرجن عند موتي، فإن هذا آخر أيامي، ولا ستر لكنَّ بعدي!.

فخرجن إليه مشققات الجيوب، مخمشات الوجوه، بصراخ شديد، فبكى إليهنَّ، وبكين إليه، وبكيت معهنَّ، ثم ودعهنَّ وخرج، وهنَّ في أثره واضعات التراب على رؤوسهن.

ثم قال: ياأبا مقاتل؛ لو أذنت لي في المسير إلى أبي علي يحيى بن خالد البرمكي، فكنت أوصيه بولدي وأهلي، فقلت: امض.

وصرنا إليه، وقد نزل في ساعته، وهو على كرسي يغسل يديه، فلمَّا توسطنا الدار، جعل منصور يبكي، ويمشي إليه، حتى دنا منه، وهو يسأله عن الحال، فيمنعه البكاء من إخباره؛ فقصصت عليه قصته: فقال؛ ارجع إلى أمير المؤمنين. وسله أن يهبه لي، قلت: ما إلى ذلك سبيل، ولا يراني إلاَّ والمال معي أو رأس المنصور، كما أمرني.

فقال لخادم له: ائت فلانة فسلها: كم لنا عندها من المال؟ فانصرف ورجع، فذكر أنَّ عندها خمسة آلاف ألف درهم! فقال لي؛ احملها وأبلغ أمير المؤمنين رسالتي في باقيها. فأعلمته أن لا سبيل إلى حمل بعضها دون بعض، فأطرق، ثم رفع رأسه، ثم قال: ياغلام؛ ائت دنانير فقل لها: تبعث إليَّ بالجوهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين؛ فبعثت إليه بحقه[1]، فقال: هذا جوهر، ابتعناه لأمير المؤمنين بمائتي ألف دينار، وهو عارف به، وقد جعلته له بمائتي ألف دينار، فاحمله إليه والرسالة؛ فأبيت!.

(١) وعاء من الخشب أو العاج أو غير ذلك مما يصلح أن ينحت منه.

فوجَّه إلى الفضل ابنه: إنك كنت أعلمتني أنك على ابتياع ضيعة نفيسة؛ وقد أصبتها، ولا يوجد مثلها في كل وقت، وابتياعها فرصة، فاحمل إليَّ مالها، فعاد الرسول ومعه ألف ألف درهم؛ ووجَّه إلى جعفر ابنه أن يوجه إليه بألف ألف درهم، فأنفذ إليه صكّاً إلى الجهبذ[1] بها!.

فقبضت المال، ووافيت الرشيد قبل المغرب، وهو على حالته ينتظر رجوعي إليه، فأخبرته الخبر، فلمَّا انتهيت إلى خبر الحقة، قال: صدق! وقد ظننت أنه لا ينجيه غيرهم، احمل هذا المال أجمع إلى أبي علي، وأردده عليه، وأعلمه أني قد قبلت ذلك عن منصور، ورددته عليه، ففعلت ذلك ولقيني بعد ذلك يحيى منصرفاً من الدار، ومنصور معه يسايره ويضاحكه، والناس خلفه، فقلت: والله لأنصحن هذا الشيخ الكريم، فدخلت معه، ودخل المنصور ودعا بغدائه، فلما نهض المنصور قلت يا أبا عليٍّ؛ إني والله ما رجعت إلا لنصحك! وقد رأيت مكان هذا الرجل منك؛ وكنَّا حين حملت المال أنهضته معي، فوالله ما قطع نصف الصحن من الدار حتى تمثل بهذا البيت:

فـمـا بُقْـيـا عَلَيَّ تَـرَكْـتُمُـانـي   ولكنْ خِفتُمـا صَـرَدَ[2] النِّـبـال

فعارض أكرم فعلك بألأمَ خصلة فيه؛ فدعاني الامتعاض من ذلك إلى إخبارك، فإني من تعلَّم في مودتك وطاعتك!.

فأكبَّ على الأرض ساعة؛ ثم رفع رأسه فقال: اعذره؛ فقد كان عقله عزب[3] عنه في ذلك الوقت!.

قال: فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه!.

البرامكة في ظل الخلفاء صفحة ٣٢٢.

(١) الجهبذ: النقاد الخبير.
(٢) صرد الرمح صرداً: نفذ حده، أي خفتما أن تصيب نبالي.
(٣) عزب: بعد.

(٨١)

قصة يحيى مع أحمد بن أبي خالد

وحكى يحيى بن خاقان قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد وبحضرته ابنه الفضل إذ دخل قوم مسلمون، ودخل فيهم أحمد بن يزيد المعروف بابن أبي خالد، فسلم وخرج، فقال يحيى لابنه الفضل: لي في أمر هذا الرجل خبر، فإذا فرغنا من شغلنا فأذكرني لأعرفكه.

ثم فرغ من عمله، وغسل يده، ودعا بطعامه، فلمّا أكل صدراً منه، أذكره الفضل ما كان وعده أن يخبره به، فقال له: نعم. كانت العطلة قد بلغت من أبي رحمه الله ومني، وتوالت المحن علينا، وأخفقنا حتى لم نهتد إلى ما ننفقه، فلبست ثيابي لأركب، وأتنسم الأخبار، وأتفرج. فقالت لي أهلي: أراك على نية الركوب، قلت: نعم، قالت: فاعلم أنَّ هؤلاء الصبيان باتوا البارحة بأسوأ حال، وإني ما زلت أعللهم بما لا علالة فيه. وما أصبحت ولهم شيء، ولا لدابتك علف، ولا لك ما تأكله؛ إذا انصرفت فينبغي أن يكون ركوبك وطلبك بحسب هذه الحال؛ ففزعت قلبي، وقطعتني عن الحركة.

ورميت بطرفي، فلم أر شيئاً أمد إليه يداً، ورميت بوهمي، فلم يقع إلَّا على منديل طبري، كان بعض الداريين أهداه لي، فقلت لأهلي: ما فعل المنديل الطبري الذي كان أهدى إلينا؟ قالت: ها هوذا، فأحضرته فأخذته، وخرجت إلى الغلام وهو مع دابتي، فأمرته بإدخال الدابة، وقلت له: اخرج إلى الشارع

فبع هذا المنديل. وأقبل بثمنه، فمضى وعاد من ساعته، فقال: خرجت إلى البقال الذي يعاملنا، وعنده رجل يصرف دارهم، فأعطاني اثني عشر درهماً صحاحاً، ورأى صاحبنا البقال أن أبيعه منه بشرط، وقد حضرت الدراهم، فإن أمضيت البيع. وإلاَّ أخرجت المنديل إلى سوق قنطرة البردان، فاستقصيت فيه وبعته.

فأمرته بإمضاء البيع لحاجتي إلى الغلام، والحال التي عليها الصبيان، وما حدَّثتني به المرأة، وأمرته أن يشتري علفاً للدابة، وما يحتاج إليه الصبيان في ذلك اليوم، وركبت لا أدري أين أقصد، فأنا في الشارع إذا أنا بين يد أبي هذا، وهو خارج من درب، ومعه موكب ضخم، وهو يكتب يومئذ لأبي عبيدالله كاتب المهدي فملت إليه، ورميت نفسي عليه، وقلت: قد تناهت العطلة بأخيك وبي إلى ما لا نهاية وراءه، وإلى ما أجلك عن ذكره مع ما توجبه لنا، فأنا أقصر قولي ولا أطيله، عليَّ وعليَّ إن لم تكن قصتي في يومي كيت وكيت، وقصصت الخبر، وخبر المنديل وهو مستمع لذلك، ماضٍ على سيره حتى بلغ مقصده، وانصرفت عنه، ولم يقل لي حرفاً.

فانصرفت منكسف البال منكسراً، منكراً على نفسي إسرافي في الشكوى، واطلاعي إياه على ما أطلعته عليه من أمري. فقلت: ما زدت على أن هجوت نفسي، وقلَّلتها في عينة من غير نفع. ولو صبرت لأتى الله بما هو أهله.

قال: ووافيت إلى منزلي على حال أنكرتها أهلي من الفكر، فقالت لي: ما حالك؟؛ وما قصتك؟ فقلت لها: جنيت اليوم جناية كنت عنها غنياً. فقالت لي: وما هي؟ قلت: لقيت يزيد الأحوال الكاتب فقلت له: كيت وكيت؛ فمضى فلم يجبني بحرف. فذممت نفسي على خنوعها وبثِّها حالها إلى من لا ينفعها. قال: فأقبلت عليَّ توبِّخني وتقول: ما حملك على ما فعلت، وأن أظهرت للرجل من ذلك ما أظهرت؛ فإن أقل ما في ذلك ألاَّ يأتمنك على شيء، فإن من تناهت

به الحال إلى مثل ما ذكرت كان غير مأمون على ما يؤتمن عليه، ويجعل إليه؟.. فنالني من توبيخها وعذلها أضعاف ما نالني أولاً.

وأصبحنا في اليوم الثاني، فوجهت أحد ثوبي، فبيع. وتبلغنا به ذلك اليوم، وفي اليوم الثالث، فلما كان في اليوم الرابع ـ وقد ضاقت نفسي، وغلبني الفكر، وعاتبتني على ذلك أهلي، وقالت لي: أنا خائفة عليك مما أرى من الوسواس فيكون ما نحتاج إليه لعلاجك أضعاف ما تحتاج إليه لمئونتنا، فسهل عليك فإن الله الصانع.

فركبت في ذلك اليوم لا أدري أين أقصد إلاَّ أنني أؤم الجسر ثم انصرف، لأبلي عذراً في الطلب عند أهلي، فلما صرت إلى قنطرة البردان، لقيني لاقٍ، فقال: قد رأيت في يومنا هذا من يطلبك، ثم لم ألبث أن لقيني من خبرني بمثل ذلك، فقصدت الدار، لأعرف الخبر، فلقيني بالقرب منها رسول، فقال لي: أبو خالد يطلبك وإياك أردت، فدخلت الدار والرسول معي، فألفينا أبا خالد يدخلنا، فقال لي حاجبه: أمرنا بإحضارك، وأن ننتظره إلى أن يخرج، فأقمت، وخرج مع الزوال، ومع غلامه كتب كثيرة، فقال له: قد حضر يحيى، فقال: هاته؛ فقمت ودنوت منه؛ فقال لي: يا ابن أخي، شكوت إليَّ بالأمس شكوى لم ينفع في جوابها إلاَّ ذلك الفعل، إذ كانت الحال قد تأدَّت إلى ما تأدَّت إليه،.

ثم أمر بإحضار أبي جميل وزاهر، تاجرين كانا يبيعان الطعام، فأتى بهما، فقال: قد علمتما أني بايعتكما البارحة بثلاثين ألف كر، على أن ابن أخي هذا شريككما فيها بالسعر. ثم التفت إليَّ فقال: لك من هذه الأكرار عشرة آلاف كر، فإن دفعا إليك ثلاثين ألف دينار ربحك، وآثرت أن تخرج إليهما من حصتك فعلت، وإن آثرت أنْ تقيم على هذا الابتياع فعلت.

فتنحينا ناحية فتناظرنا، فقال لي التاجر: أنت رجل شريف وابن شريف، وليست التجارة من شأنك، ومتي أقمت على هذا الابتياع احتجت إلى كفاة

وأعوان، ولكن خذ منّا ثلاثين ألف دينار وخلّنا والطعام، فقلت: قد فعلت. فقمنا إلى أبي خالد، فقلت: قالا لي كذا وكذا، وأجبتهما إلى أخذ المال، فقال صواب، لو أقمت معهما احتجت إلى تعب، ولزمتك مؤن، وكان ذلك أربح لك، ولكن هذا أروح، فخذ المال، وتبلغ به والزمنا، فإنّا لا نقصر في كل ما يمكننا في أمرك، فخرجت فأخذت من الرجلين المال، ثلاثين ألف دينار وما بين ذلك وبين بيع المنديل إلاّ أربعة أيام، فصرت إلى أبي، فأخبرته الخبر، وقلت له: جعلني الله فداك تأمر في المال بأمرك، فقال: نعم، أنا أحكم عليك في هذا المال بما حكم به أبو خالد على التاجرين، أي أنَّ لي الثلث، فحملت إليه عشرة آلاف دينار، واشتريت بعشرة آلاف دينار عقدة[1]، ولم أزل أنفق الباقي إلى أن أداني إلى هذه الحال، وإنما حدَّثتك يا بني هذا، لتعرف للرجل حقه.

فقلت ليحيى بن خاقان: فما كان من يحيى إلى أحمد بن أبي خالد؟ فقال: مازال وولده على غاية البرّ له والتحريك حتى نال ما نال من الوزارة بذلك الأساس الذي أسّسوه، وكانت وفاة أبي خالد يزيد الأحوال في سنة ثمان وستين ومائة.

المستطرف: ١ - ٢٣٩.

٨٢

يحيى بن عبدالله العلوي

هو يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكنيته أبو الحسن ولقبه المثنى، وكان حسن المذهب مقدماً في أهل بيته، بعيداً مما يعاب على مثله، روى أحاديث كثيرة، وجلس في مجالس الإمام مالك[1] بن أنس، وأعجب مذهبه كثيراً من الناس، فاتبعوه، وبثَّ دعاته في الأرض، وبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراق. وبايعه من العلماء محمد بن إدريس الشافعي[2]، وبشر بن المعتمر[3]، وغيرهم، ولما تولى الرشيد الخلافة، فتش عنه، ورصد له الأرصاد، وطلبه في كل مكان، وأمعن في ذلك؛ فلجأ يحيى إلى خاقان ملك

---

(١) هو أبو عبدالله مالك بن أنس الأصبحي، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية، مدني المولد والمنشأ، كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، ضرب به المنصور لوشاية، وقصده الرشيد وسمع منه، وألَّف الموطأ في الحديث بإشارة المنصور، توفي سنة ١٧٩ هـ. سنة ٧٩٥م «الديباج المذهب».

(٢) الشافعي: قرشي هاشمي مطلبي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبت الشافعية، ولد في غزة سنة ١٥٠ هـ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، وقصد الديار المصرية سنة ١٩٩ هـ. وتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ، سنة ٨٢٠م ووصفه المبرد بأنه كان أشعر الناس وآدابهم وأعلمهم بالفقه والقراءات، وكان بارعاً في اللغة وأيام العرب، ثم تخصص في الفقه والحديث، فأفتى وهو ابن عشرين سنة، ومن كتبه: الأم في الفقه، والمسند في الحديث. . .

(٣) بشر بن المعتمر: هو أبو سهل بشر بن المعتمر، فقيه بغدادي معتزلي مناظر أديب، له رسالة مشهورة يتحدَّث فيها عن الكتابة توفي سنة ٢٤٠ هـ. سنة ٨٢٥م «ديوان الإسلام مخطوط».

الترك، وأقام عنده مدَّة، ثم رحل إلى طبرستان[1]، ثم إلى الديلم[2]؛ فكثر أتباعه، وقوي أمره، واشتدت شوكته، ونزع إليه الناس من الكور والأمصار، وسار خبره في البلاد، فآلم الرشيدَ عصيانه، وشغله خروجه، وخشيه على دولته، فندب إليه الفضل بن يحيى في جمع كثيف من الناس، قيل إنه كان خمسين ألفاً، وقيل ثمانين، معهم صناديد القواد، وزوَّد الرشيد الفضل بما شاء، وبما استطاع، ولم يزل يرسل إليه كتبه تشجيعاً له، ولطفاً به، ويغمره بالخلع والألطاف والهدايا والجوائز.

ورأى الفضل أن يلجأ إلى طريق السلم لعلَّه يدرك بها ما لا يستطيع أن يدركه من طريق الحرب، ولا سيما بعدما عرف ما وصل إليه يحيى من القوَّة وبسط السلطان؛ فكتب إليه يرفق به ويستميله تارة، ويحذِّره، ويخوِّفه تارة أخرى، وأشار عليه بما فيه خيره وصلاحه، وصلاح من قبله من القوَّاد والأجناد، وبسط له الأمل الواسع إن هو سالم ودخل في الطاعة.

وما زال الفضل يكتب إلى يحيى يعده ويمنيه، ووسط له الوسطاء يحببون إليه الخطَّة التي رآها له الفضل ويجمِّلونه بحسن الحيلة عليها؛ فأجاب يحيى إلى الصلح شارطاً أن يكتب إليه الرشيد بخطِّه أماناً يبعث به إليه.

فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فوقع من نفسه موقعاً عظيماً؛ لأنه جنَّبه ويلات حرب شديدة، **وأسرع إلى كتابة الأمان، وأشهد على نفسه فيه القضاة والفقهاء، وجلَّة بني هاشم، ومشايخهم**، ووجَّه به مع جوائز سنية، وكرامات

---

(١) طبرستان: بفتح أوَّله وثانيه وكسر الراء، وهي كلمتان فارسيتان: الطبر: ومعناها الذي يشق الأحطاب، واستان ومعناها: الناحية أو الموضع، والنسب إليها طبري، وهي بلدان واسعة كثيرة تغلب عليها الجبال وقصبتها آمد، مياهها كثيرة، وأشجارها متهدلة وفواكهها دانية، وقد بدأ المسلمون في فتح هذا الإقليم زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولكنهم لم يستولوا عليه استيلاء تاماً، وظلَّ مصدر قلق للخلافة زمن بني أمية وبني العباس.

(٢) الديلم: أرض مسمى بها أهلها من العجم، ويطلق الديلم أيضاً على ماء لبني عيسى.

وهدايا فاخرة، وجَّه بها جميعاً الفضل إلى يحيى؛ ثم خرج يحيى إلى الفضل ولقَّبه على هذا الأمان، وصحبه إلى بغداد بلد الرشيد ومقر خلافته؛ فلقيه الرشيد خير لقاء وأكرمه أحسن إكرام، وقدَّم له مالاً كثيراً، وأجرى عليه أرزاقاً سنية، وأنزله منزلاً سرياً، وأمر الناس بزيارته والتسليم عليه، مبالغة في تكريمه؛ وقد أشاد الشعراء بما فعله الفضل، وبما وفقه الله إليه من التوفيق بين الرشيد ويحيى، ومما قيل في ذلك ما أنشده أبو ثمامة الخطيب:

سَدَّ الثغورَ وردَّ أُلْفَةَ هاشمٍ ... بعد الشَّتاتِ فشَعْبها مُتَدان
عَصمتْ حكومتُهُ جماعةَ هاشمٍ ... مِن أن يُجَرَّدَ بينها سيفان
تلك الحكومةُ لا التي عن لَبْسِها ... عَظُم النَّبأ وتَفرَّقَ الحَكَمان

«البرامكة في ظل الخلفاء ١٩١».

٨٣

كيف اتصلت بالمأمون

قال أبو جعفر أحمد بن يوسف البغدادي المصري الكاتب المتوفى سنة ٣٤٠، في كتابه «المكافأة» ص ١١٩: «وحدَّثني شجاع بن أسلم الحاسب. قال: قلت لسَنَد بن علي: من كان سبَبَك إلى المأمون حتى اتصلت به وكنت من جلسائه من العلماء؟ فقال: أحدثك به:

كان والدي يتكسَّبُ بصناعة أحكام النجوم مع قومٍ من أسباب السلطان يودونه ويحبونه، وتعلّقَ قلبي بعد فراغي من قراءة كتاب «أُقْلِيدِس». بكتاب «المِجَسْطيَ»(١)، وكان في أيام المأمون بسوق الورَّاقين رجل يعرف بمعروف، يُورِّقُ هذا الكتاب - أي يكتبه على الوَرَق. ويبيعُهُ بعدَ تَكامل خَطِّهِ وأشكاله وتجليده بعشرين ديناراً، فسألت والدي ابتياعَه لي. فقال: أنظرني يا بُني إلى أن يتهيَّأ لي شيءٌ آخذُه إما من رِزق، وإما من فضل، وأبتاعُهُ لك.

وكان لي أخ لا يشتهي مما تقدَّمتُ أنا فيه من العلم شيئاً، إلاَّ أنه كان يخدم أبي في حوائجه والإشفاق عليه.

فلما سوَّفني أبي بالكتاب وطالت المدَّةُ فيه، ركبتُ معه لأُمسِك دابَّتَه في دخوله إلى من يدخل إليه، ولي إذ ذاك سبع عشرة سنة. فخرج إليَّ غلمانٌ من

(١) أقليدس والمجسطى كتابان شهيران عظيمان من وضع اليونان، الأول منهما في أصول الهندسة، والثاني في الهيئة، وعليهما المعول في هذين الفنين.

كان عنده فقالوا: انصرف فقد أقام أبوك عند مولانا. فمضيتُ بالدابة فبِعتُها بسَرْجِها ولِجامِها بأقلَّ من ثلاثين ديناراً.

ومضيتُ إلى معروف فاشتريتُ الكتاب بعشرين ديناراً. وكان لي بيتٌ أخلو فيه. وجئتُ إلى أُمِّي فقلتُ لها: قد جَنيتُ عليكم جناية. واقتَصصتُ القِصَّةَ عليها. وحَلفتُ لها إن شَحذَتْ أبي عليَّ حتى يمنعني من النظر في الكتاب. لأخرجُنَّ عنهم إلى أبعد غاية. ورَددتُ عليها فضلَ ثمن الدابة، وقلت لها: أنا أُغلِقُ باب هذا المنزل الذي لي، وأَرضَى منكم برغيف يُلقَى إليَّ كما يُلقَى إلى المحبوس. إلى أن أقرأه جميعاً. فتضمَّنَتْ لي بتسكين فَوْرَتِه.

ودخلتُ البيت وأغلقته من عندي. فمضى أخي إلى والدي في الموضع الذي كان فيه فأسَرَّ إليه الخبر. فتغيَّر وجهه، وتلجلج في حديثه. فقال له من كان عنده: قد شَغلتَ قلبي وقلْبَ من حضرَ بما ظهر منك. فبحقِّي عليك إلاَّ أخبرتَنا بماذا؟ فحدَّثه أبي، فقال الرجل: هذا والله يَسرُّنا في ولدك، فاتَّعِدْ فيه بكل جميل. ثم استحضر من إسطبله بَغْلاً أَفْرَهَ من بغلِ أبي، وسَرْجاً خيراً من سَرْجِهِ. وقال لأبي: اركب هذا البغل ولا تُكلِّم ابنَك بحرف.

قال سَنَد: وأقمتُ ثلاث سنين كيوم واحد. لا يَرى لي أبي صورةَ وجه. وأنا مُجِدٌّ حتى استكملتُ كتاب المِجَسْطَى، ثم خَرجتُ وقد عملتُ أشكالاً مستصعَبات، ووضعتُها في كُمِّي، وسألت: هل للمهندسين والحُسّاب موضعٌ يجتمعون فيه؟ فقيل لي: لهم مجلس في دار العباس بن سعيد الجوهري تِرْبِ المأمون، يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة، فحضرتُه فرأيتُ جميعَ من حَضَرَ مشايخَ ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيري، لأني كنتُ في العشرين.

فقال العباس: من تكون وفيمَ نظرتَ؟ فقلت: غلامٌ يُحبُّ صناعة الهندسة والهيئة، قال: ما قرأت؟ قلت: «أُقْلِيدِس» «والمجَسْطَى»، قال: قراءةَ إحاطة؟

قلت: نعم، فسألني عن شيء مستصعَب في كتاب «المجسطى» كان تفسيرُه في الأوراق التي كانت في كُمِّي فأجبته، فعجِبَ وقال: من أفادك هذا الجواب؟ قلت: استخرجَتْه قريحتي وما سمعتُه من غيري، وهو غيرُه فيما مَرَّ بي في ورق معي، قال: هاته، فلمَّا رآه اغتاظ واضطرب، ثم قال لبعض مَنْ بينَ يديه من غِلمانه: «السَّفَط»، فجيء به، فنظر إلى خاتمه فوجده بحاله، ثم فضَّه وأخرج منه كراسة، فجعَلَ يقابل بها الورق الذي كان معي، فكان الكلام فيما معه أحسن رَصْفاً من الكلام الذي معي، والمعنى واحد.

فقال: هذا شيء تولَّيتُ تبيينَه من كتاب «المِجَسْطَى»، فلما أحضرتَنِيه توهَّمْتُ أنَّه سُرِق مني، حتى تبيَّنتُ اختلافَ اللفظين مع اتِّفاق المعنى. ثم أمَرَ أن يُقطَع لي أَقْبِيَةَ، ويُرتادَ لي مِنْطقةَ مذهَّبة، ففُرِغَ من جميع ذلك في تلك الليلة، وأُدخِلَ بي إلى المأمون، وأَمَرني بملازمته، وأَجرَى لي انزالاً ورزقاً».

صفحات من صبر العلماء علي شدائد العلم والتحصيل صفحة ٨٣.

٨٤

من مفاخر المسلمين في الأندلس

ثبتت [قدم] عقب ابن الأحمر بالأندلس، واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورُنْدَة التي كانت بيد بني مَرِين.

وبعد مدَّة أَلَّبَ ملوكُ النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غَرْنَاطَة، وجاءها الطاغية دون بِطْرُه في جيش لا يُحْصَى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وكان من خبر هذه الوقعة أنَّ الإفرنج حَشَدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بِطْرُه إلى طُلَيْطلة، ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا، وسجد له، وتضرَّع، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وأكَّد عزمه، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها، وعزموا على الاستنجاد بالْمَرِيني أبي سعيد صاحب فاس، وأنفذوا[١] إليه رُسُلاً، فلم ينجع ذلك الدواء، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو اللَّجَؤ إلى الله تعالى، وأخلصوا النيَّات، وأقبل الإفرنج في جموعٍ لا تحصى، فقضى ناصر مَنْ لا ناصر له سِواه بهزم أمم النصرانية، وقتل طاغيتهم دون بِطْره، ومن معه، وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوراً مشهوداً.

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور، فلما

(١) في أ «ونفذوا إليه رسلاً».

بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردِّهم، وجهَّز الأساطيل والرجال، فلما رأوا ذلك طلبوا إلى طُلَيْطلة، وعزموا على استئصال المسلمين وتأهَّبوا لذلك غاية الأهبة، ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار وأقوات في المراكب، ووصل العدو إلى غَرْنَاطة، وامتلأت الأرض بهم، فتقدم السلطان إلى شيخ الغُزاة الشيخ العالم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء اْلمَرِيني بالخروج إلى لقائهم بأنجاد المسلمين(١) وشجعانهم، فخرج إليهم يوم الخميس الموفى عشرين لربيع الأول.

ولَمَّا كان ليلة الأحد أغارت سَرِيَّةٌ من العدو على ضيعة(٢) من المسلمين، فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة، فقطعوهم عن الجيش، وفرَّت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم، فتبعهم المسلمون إلى الصبح، فاستأصلوهم وكان هذا أوَّل النصر.

ولَمَّا كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين، فلمَّا شاهدهم الفرنج **عجبوا من إقدامهم مع قلَّتهم في تلك الجيوش العظيمة**، فركبوا وحملوا بجُمْلتهم عليهم، فانهزم الفرنج أقبَحَ هزيمة، وأخذتهم السيوفُ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام، وخرج أهل غَرْنَاطة لجمع الأموال، وأَخْذِ الأسرى، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب - فيما قيل - ثلاثة وأربعون قنطاراً، ومن الفضَّة مائة وأربعون قنطاراً، ومن السَّبْي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الْغرناطيين إلى الديار المصرية، **وكان من جملة الأسارى امرأة الطاغية وأولاده**، فبذلت في نفسها مدينةَ طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين، فلم يقبل المسلمون ذلك، وزادت عدَّة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً،

(١) أنجاد - بفتح الهمزة - جمع نجد، وهو الشجاع.
(٢) في ب «على سرية من المسلمين».

ويقال: إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد، لعدم معرفتهم الطريق، وأمَّا الذين هلكوا بالجبال والشِّعاب فلا يحصون، وقُتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم، واستمرَّ البيع في الأسرى والأسلاب[1] والدواب ستة أشهر، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد.

ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً، وقيل: عشرة أنفس، وقيل: كان عسكر الإسلام نحو ألف وخمسمائة فارس، والرَّجَّالة نحواً من أربعة آلاف راجل، وقيل دون ذلك.

وكانت الغنيمة تفوق الوصف، وسُلخ الطاغية دون بِطْره وحُشي جلده قطناً، وعُلق على باب غَرْنَاطة، وبقي معلَّقاً سنوات، وطلبت النصارى الهدنة، فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذي كان من أعمال [سلطان] فاس والمغرب، وهو جبل طارق، ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه[2] أمير المؤمنين أبو الحسن الْمَرِيني صاحب فاس والمغرب، بعد أن أنفق عليه الأموال، وصرف إليه الجنود والحشود، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه، وضيِّقوا به، إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، واهتمَّ ببنائه وتحصينه، وأنفق عليه أحمالَ مال في بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره، ومخازِنه[3]، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو براً وبحراً، فصبر المسلمون، وخيَّب الله سعي الكافرين، فأراد[1] السلطانُ المذكور أن يحصِّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته لا يطمع عدوّ في منازلته، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته، ورأى الناسُ ذلك من المحال، فأنفق الأموال، وأنصف العمال، فأحاط بمجموعة إحاطَةَ الهالَةِ بالهلال، وكان بقاء

---

(١) في ب، أ، ز «والأسباب» والأسلاب: جمع سلب ـ بفتح السين والسلام جميعاً ـ وهو ما يأخذه المقاتل من قرنه.
(٢) في أ «حتى ارتجعها أمير المسلمين» وليس بشيء، لأنَّ الحديث عن الجبل.
(٣) في ب «ومحاريبه».
(١) في أ «فرأى السلطان».

هذا الجبل بيد العدوّ نيفاً وعشرين سنة، وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر، زاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان، ولما أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس، واجتمع عليه ابن الأحمر، وقاتلهم الطاغية ـ هزمهم في وقعة طريف، واستولى على الجزيرة الخضراء، حتى قيض الله من بني الأحمر الغني بالله محمداً الذي كان لسان الدين بن الخطيب وزيره، فاسترجعها وجملَةَ بلاد كجيّانَ وغيرها.

وكانت له في الجهاد مواقف مشهورة، وامتدَّ ملكه واشتدَّ حتى محا دولَةَ سلاطين فاس مما وراء البحر، وملك جبلَ الفتح، ونصر الله الإسلام على يده، كما ستقف عليه في بعض مكاتبات لسان الدين ـ رحمه الله! ـ في مواضع من هذا الكتاب، وسَعْدُ هذا الغني بالله من العجائب.

وبقي ملك الأندلس في عقبه إلى أن أخذ ما بقي من الأندلس العدوّ الكافر واستولى على حضرة الملك فَرْنَاطة أعادها الله للإسلام، وخلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام، فأبدِلَتْ من النور بالظلام، حسبما اقتضته الأقدار النافذة، والله وارث الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين.

نفح الطيب: ١ ـ ٤٢٣.

٨٥

ضائقة في بغداد وفرج الله

«قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني: كنتُ أقتاتُ بخُرنوب الشوك، وقُمامة البَقْل، وَورَقِ الخَسّ من جانب النهر والشط، وبلغَتَّ الضائقةُ في غلاءٍ نزل ببغداد، إلى أن بقيتُ أياماً لم آكل فيها طعاماً، بل كنت أتتبَّعُ المنبوذات أطعَمُها.

فخرجتُ يوماً من شدَّة الجوع إلى الشَّط، لعلِّي أجِدُ ورق الخَسّ أو البقلِ أو غيرَ ذلك فأتقوَّتَ به؟ فما ذهبتُ إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه، وإن وجدتُ أجِدُ الفقراءَ يتزاحمون عليه فأتركه حُبّاً.

فرجعتُ أمشي وسط البلد فما أُدرِكُ منبوذاً إلاَّ وقد سُبقتُ إليه، حتى وصلتُ إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد، وقد أجهدني الضعف وعجزتُ عن التماسك، فدخلتُ إليه وقعدت في جانبٍ منه، وقد كدت أصافح الموت! إذ دخل شاب أعجمي، ومعه خبز صافي وشُواء، وجلس يأكل، فكنتُ أكادُ كلما رَفَع يده باللقمة أفتح فمي من شدَّة الجوع، حتى أنكرتُ ذلك على نفسي فقلت: ما هذا؟ وقلت: ما ها هنا إلاَّ الله أو ما قَضَاهُ من الموت!.

إذ التفت إليَّ العجمي فرآني فقال: بسم الله يا أخي. فأبيتُ فأقسمَ عليَّ فبادَرَتْ نفسي فخالفتُها، فأقسمَ أيضاً فأجبتُه فأكلتُ متقاصِراً، فأخذ يسألني: ما شُغْلُك؟ ومن أين أنت؟ وبمن تُعرَف؟ فقلت: أنا متفقِّة من جِيلان، فقال: وأنا

من جيلان، فهل تعرف شاباً جِيلانياً يسمى عبدالقادر، ويعرف بسبط أبي عبدالله الصَّوْمَعيِّ الزاهد؟ فقلت: أنا هو.

فاضطرب وتغيَّر وجهُه وقال: والله لقد وصلتُ إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألتُ عنك فلم يُرشِدني أحد، ونَفِذَتْ نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجدُ ثمن قُوْتي إلَّا ما كان لك معي، وقد حلَّت لي الميتة، وأخذتُ من وديعتك هذا الخبزَ والشواء، فكُلْ طيِّباً، فإنَّما هو لك وأنا ضيفُك الآنَ بعد أن كنتَ ضيفي.

فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أُمُّك وجَّهَتْ لك معي ثمانية دنانير، فاشتريتُ منها للاضطرار فأنا معتذر إليك، فسكَّنْتُه وطيّبتُ نفسَه، ودفعتُ إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة، فقبِلَهُ وانصرف».

صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل صفحة ٥٩.

٨٦

هكذا تكون مكافأة الكريم

حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبَّل بالحديد فلمَّا رآني قال لي يا عباس قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال خذ هذا إليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به إليَّ في غد واحترز عليه كل الاحتراز.

قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرَّك فقلت في نفسي مع هذه الوصية أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به مايجب إلاَّ أن يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو فقال أنا من دمشق فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيرا فمن أنت من أهلها قال وعمَّن تسأل قلت أتعرف فلانا قال ومن أين تعرف ذلك الرجل فقلت وقع لي معه قضية فقال ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه فقال ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أنَّ الوالي تدلَّى في زنبيل من قصر الحجَّاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم.

فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي فمازلت أعدوا أمامهم حتى فتهم فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت أغثني أغاثك الله قال لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت فقالت

زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلَّا وقد دخلا والرجل معهم يقولون هو والله عندك فقال دونكم الدار فتِّشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا هو ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا.

وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدَّة الخوف فقالت المرأة اجلس لا بأس عليك فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرَّهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى فقلت له جزاك الله خيراً فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكاناً في داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقَّد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها فقلت له أتأذن لي في الخروج حتى أتفقَّد حال غلماني فلعلِّي أقف منهم على خبر فأخذ عليَّ المواثيق بالرجوع إليه.

فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية فقال علاَّم تعزم فقلت عزمت على التوجُّه إلى بغداد فقال القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك فقلت له إنك تفضلت عليّ هذه المدَّة ولك عليَّ عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينَّك مهما استطعت قال فدعا غلاماً له أسود وقال له أسرج الفرس الفلاني ثم جهَّز آلة السفر فقلت في نفسي أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي فأقاموا يومهم ذلك في كدٍّ وتعب.

فلمَّا كان يوم خروج القافلة جاءني السحر وقال لي يا فلان قم فإنَّ القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت في نفسي كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكرى به مرّكوباً ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجّة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدَّهما في وسطي

ثم قدَّم بغلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع إليَّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم إليَّ الفرس الذي كان جهزه وقال اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إليَّ من التقصير في أمري وركب معي يشيعني وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقَّع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرَّغ أن أرسل إليه من يكشف خبره فلهذا أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل وإنما الضرُّ الذي أنا فيه غيَّر عليك حالي وما كنت تعرفه مني ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته فما تمالكت أن قمت وقبَّلت رأسه ثم قلت له فما الذي أصارك إلى ما أرى.

فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إليَّ وبعث أمير المؤمنين بجويش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيّدت، وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري وهو نازل عند فلان فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدَّ المكافأة وقمت لي بوفاء عهدك.

قال العباس: قلت يصنع الله خيراً ثم أحضر حداداً في الليل فكَّ قيوده وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمَّام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم سير من أحضر إليه غلامه فلمَّا رآه جعل يبكي ويوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال: عليَّ بالفرس الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عدَّ عشرة ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا

وكذا قال ذلك الرجل وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيِّعه إلى حدِّ الأنبار.

فقلت له: إنَّ ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم وخطبي جسيم وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كلّ من على بابه فأُردّ وأقتل، فقال لي: انج بنفسك ودعني أدبِّر أمري، فقلت: والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري حضرت.

فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته وإن أنا قتلت فقد وقيته نفسي كما وقاني بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجتهد في إخراجه من بغداد. قال الرجل. فأخذني صاحب الشرطة وصيَّرني في مكان أثق به وتفرَّغ العباس لنفسه وتحنَّط وجهَّز له كفناً.

قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلاَّ ورسل المأمون في طلبي يقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم قال فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل؟ فسكت فقال ويحك أيها الرجل؟ فقلت يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: لله عليَّ عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربنَّ عنقك، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري. قال قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصَّة جميعها وعرَّفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني فأكون قد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنَّطت وها كفني يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً إنه

فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير هلا عرَّفتني خبره فكنَّا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له فقلت يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر فقال المأمون وهذه منَّة أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيِّب نفسه وسكِّن روعه وائتني به حتى أتولى مكافأته قال العباس فأتيت إليه وقلت له ليزل خوفك إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه ثم قام فصلَّى ركعتين ثم ركب وجئنا.

فلما مثُل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدَّثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم.

مستطرف: ١ - ٢٤٠.

٨٧

الخليفة الواثق، يهمل بعد موته فيأكل الجرذون عينيه

حدَّثني الحسين بن الحسن بن أحمد بن يحيى الواثقيّ، قرابة أبي، قال: حدَّثني أبي، قال حدَّثني أبي أحمد[1]، قال:

كُنْتُ أخدم الواثق[2]، وأخدم تحته، في علَّته التي مات فيها.

فكنت قائماً بين يدي الواثق، في علَّته، أنا وجماعة من الأولياء، والموالي، والخدم إذ لحقته غشية، فما شككنا أنَّه قد مات.

فقال بَعْضُنا لِبَعْضٍ: تقدَّموا فاعرفوا خَبَرَهُ، فما جسر أحد منهم يتقدَّم.

فتقدَّمت أنا، فلما صِرْتُ عند رأسه، وأردت أن أضع يدي على أنفه وأعتبر نَفَسَهُ، لحقته إفاقَةٌ، ففتح عينية، فَكِدْتُ أن أموت فَزَعاً من أن يراني قد مشيت في مجلسه إلى غير رتبتي.

فتراجعت إلى خلف، فتعلَّقت قبيعة[3] سيفي بِعَتَبِةِ[4] المجلس، وعثرت

(١) أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي: ولي البصرة سنة ٢٨٥ (معجم الأنساب والأسر الحاكمة ٦٥) ثم ولي شرطة بغداد في أيام المكتفي، ترجم له صاحب الوافي بالوفيات ١٣٥/٨ وأورد له قصَّة لطيفة في الكشف عن اللصوص.

(٢) الواثق، هارون بن المعتصم: ترجمته في حاشية القصة ١٥٥/١ من النشوار.

(٣) قبيعة السيف: ما على طرف مقبضه من فضَّة وحديد.

(٤) العتبة: أسكفة الباب.

به، فانكببت عليه، فاندقَّ سيفي وكاد أن يدخل في لحمي، ويجرحني.

فسلمت، وخرجت، واستدعيت سيفاً ومنطقةً أُخرى، ولبستها وجئت حتى وقفت في مرتبتي ساعةً. فتلف الواثق تلفاً لم تشكّ جماعتنا فيه، فتقدّمت فشددت لحييه، وغمَّضته، وسجيّته، ووجهته إلى القِبْلَه وجاء الفرَّاشون، وأخذوا ما تحته في المجلس، ليردُّوه إلى الخزانة، لأنَّ جميعه مثبت عليهم، وتُرِكَ وَحْدَهُ في البيت.

فقال لي ابن أبي دؤاد القاضي: إنَّا نريد أن نتشاغل بعقد البيعة، ولا بدَّ أن يكون أحدنا يحفظ الميت إلى أن يدفن، فأحبّ أن تكون أنت ذلك الرجل. وقد كنت من أخصُّهم به في حياته، وذلك أنَّه اصطنعني، واختصَّني حتى لقّبني الواثقيّ، باسمه، فحزنت عليه حزناً شديداً، وقلت: دعوني، وامضوا.

فرددت بابَ المجلس، وجلستُ في الصحنِ، عند الباب أحفظه، وكان المجلس في بستان عظيم، أجربة، وهو بين بستانين.

فَحَسَسْتُ بعد ساعة، في البيت، بحركة عظيمة أفزعتني، فدخلت أنظر ما هي، فإذا بحرذون(١) قد أقبل من جانب البستان، وقد جاء حتى استلّ عيني الواثق، فأكلها.

فقلت: لا إله إلاَّ الله، هذه العين التي فتحها منذ ساعة، فاندقَّ سيفي هيبة لها، وصارت طعمة لدابّةٍ ضعيفةٍ.

قال: وجاءوا فغسلوه بعد ساعة، فسألني ابن أبي دؤاد، عن سبب عينيه، فأخبرته.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ٢ ـ ٧٣.

(١) الحرذون: من الزحافات وهو أكثر من السحلية يسمى في جزيرة العرب بالحبينة (معجم الحيوان للمعلوف ص٦ و ٢٢٦).

٨٨

عناية رسول الله ﷺ بأبي حسان الزيادي

حدَّثني أبي، رضي الله عنه، بإسناد ذكره:

أنَّ أبا حسَّان الزياديّ(١)، كان من وجوه فقهاء أصحابنا، ومن غلمان أبي يوسف، وكان من أصحاب الحديث.

وكان تقلَّد القضاء قديماً، ثم تعطَّل، فأضاق، فلزم مسجداً حيال داره، يفتي، ويدرِّس الفقه، ويؤمّ، ويحدِّث، وإضاقته كل يوم تزداد، وهو يطلب التصرُّف، أو الرزق، ولا يظفر به، وقد نفد ما عنده، وباع كلَّ ما يملكه، ورَكِبَهُ دين عظيم.

إذ جاءه يوماً خراسانيّ، وقد حضر وقت خروج الناس من بغداد إلى مكّة.

(١) أبو حسان الزيادي: الحسن بن عثمان القاضي، قال عنه التنوخي مؤلف النشوار، إنه كان من غلمان أبي يوسف القاضي، وتقلّد القضاء قديماً، ثم تعطّل، وقال عنه الخطيب في تاريخ بغداد إنه كان من خاصة القاضي أحمد ابن أبي دؤاد، ثم قال: إنّ المتوكل عيَّنة قاضياً في السنة ٢٤١، أي بعد وفاة ابن أبي دؤاد بسنة، ومما يستلفت النظر أن القصص التي يوردها أبو حسان الزيادي، تشتمل على الثناء عليه، والإطراء له، وهو المخبر بها وحده، فإنّ هذه القصّة وتتلخّص في اهتمام النبي صلوات الله عليه بأبي حسّان وتشدده على الخليفة في العناية به، هي من روايته هو، ولم يكتف أبو حسان بذلك، فادّعى من بعد، أنه رأى الله سبحانه وتعالى، لمّا طولب بالإيضاح، قال: إنه رأى في منامه نوراً (تاريخ بغداد للخطيب ٣٥٧/٧).

فقال له: إنِّي أريد الخروج إلى الحجّ، وهذه عشرة آلاف درهم معي، تقبلها وديعة لي، فإن رجعت من الحجّ رددتها عليَّ، وإن رجع الناس ولم أرجع، فاعلم أنِّي هلكت، وهي لك هبة حلالاً.

قال أبو حسان: فأخذتها إلى منزلي، وقصصت على زوجتي الخبر.

فقالت: نحن في ضرٍّ شديدٍ، فلو تصرَّفت فيها من الآن، وقضيت دينك، واتَّسعت، فلعلَّ الله يجعلها لك، فتكون قد تعجَّلت العيش.

فقلت: لا أفعل.

فما زالت في يومي وليلتي، تحملني على ذلك، حتى أجبتها إليه من غدٍ، ففضضت الختم عن الكيس، وقضيت منه ديني، وتأثَّثت[1]، وتوسَّعْتُ في منزلي، واشتريت ثياباً لي، ولها، ولبناتي، وأصلحت جميع أمري بنحو خمسة آلاف درهم من ذلك.

ومضى على هذا الحديث ثلاثة أيَّام، أو أربعة، فانفتلت يوماً عن الصلاة، فإذا بالخراسانيّ ورائي.

فلما رأيته قامت قيامتي، وقلت: ما لك؟.

فقال: قد انصرفت عن السفر إلى مكَّة، وأُريد المقام ببغداد، فتردّ إليَّ تلك الوديعة.

فقلت له: لست أتمكَّن من ذلك الساعة، فتجيئني غداً غدوة.

فنهض، ونهضت إلى منزلي، وما بي طاقة للمشي، فيما بين المسجد وبيتي.

(١) تأثث: أصاب خيراً.

فدخلت، وسقطت مغشيّاً عليَّ، واجتمع أهلي.

فلما أفقت، قالوا: ما دهاك؟.

قلت: أنتم حملتموني على التصرّف في مال الخراسانيّ، وقد جاءني الساعة يطلبه، فكيف أعمل؟ الآن افتضح، ويذهب جاهي، وأهلك بين الناس، وأُحبس، فأموت ضرّاً وغمّاً.

وجاءت المغرب[1]، فلم أقدر على الخروج إلى المسجد، وكذلك العشاء، ثم قمت، فصليت في البيت.

فقلت: هذا أمر ما يكشفه إلّا الله، وليس إلّا التضرع إليه، فجدَّدت طهوراً، وصففت قدميَّ في المحراب، أصلّي، وأبكي، وأدعو حتى ختمت القرآن، وقد كاد أن يطلع الفجر، وما اكتحلت غمضاً.

فقلت لأهلي: الساعة يجيء الرجل إلى المسجد، فكيف أعمل؟

فقالوا: لا ندري.

فقلت: أسرجوا لي، وكانت لي بغلة أركبها.

وقلت لهم: أنا، هوذا، أركب، لا أدري إلى أين أمضي، ولست أرجع إليكم وإن تَلَفْتُ، ولا وجه لي يقوى على كلام الخراسانيّ، فإن طالبكم وخرج بكم إلى مكروه، فسلّموا إليه بقيَّة المال، وأصدقوه الحديث، وإن أمكنكم مدافعته، فدعوني مستوراً، فلعلّي أرجع بفرج، أو رأي في أمره.

(١) أي صلاة المغرب.

وركبت، لا أدري أين أقصد، وليس معي ضياء، ولا غلام، وتركت عِنَانَ البغلة على عُرْفِها[1].

وجاءت إلى الجسر، وعبرَتْهُ إلى الجانب الشرقيّ، وأنا عليها، وصارت بي إلى باب الطاق، وعطفت بي في الشارع الكبير، المنفذ إلى دار الخليفة.

فلمَّا توسطته، إذا بموكب عظيم، وضياء، وقوم يجيئون من ناحية دار الخليفة.

فقلت: أتنكّب الطريق، حتى لا يزحموني بدوابّهم.

فجذبت العِنَانَ لأدخل درباً، فإذا بهم يصيحون بي، فوقفت

فقالوا: من أنت؟ ومن تكون؟.

قلت رجل من الفقهاء، فمسكوني، فجاذبتهم، وجاء رئيسهم.

فقال: من أنت رحمك الله؟ لا بأس عليك إن صدقت.

قلت: رجل من الفقهاء والقضاة.

قال: بمن تعرف؟.

قلت: بأبي حسَّان الزياديّ.

فصاح: الله أكبر، الله أكبر، أجب أمير المؤمنين، فسرت معه، حتى أُدْخلت على المأمون.

فقال لي: من أنت؟.

قلت: رجل من الفقهاء والقضاة، أعرف بالزياديّ، ولست منهم، إنَّما سكنت في محلة لهم، فنسبت إليهم.

فقال: بأي شيء تكنًى؟.

---

(1) عرف الفرس: الشعر النابت في محدب رقبة الفرس، وعرف الديك: اللحمة المستطيلة في أعلى رأسه.

قلت: بأبي حسَّان.

قال: ويحك ما دهاك؟ وما قصَّتك؟ فإن رسول الله ﷺ، ما تركني البارحة أنام بسببك، أتاني دفعة في أوَّل الليل، وفي وسطه، وهو يقول: أغث أبا حسَّان الزياديّ، فأنتبه، ولا أعرفك، وأنسيت السؤال عنك، فلمَّا كان الساعة، أتاني، فقال: أغث أبا حسان الزياديّ، فما تجاسرت على النوم، وأنا ساهر من ذلك الوقت، وقد بثثتُ الناسَ في جانبي البلد، أطلبك، فما قصَّتك؟.

قال: فصدقته عن الخبر، حتى لم أكتمه منه حرفاً.

وقلت: أنا رجل كنت أتقلَّد للرشيد من أبي يوسف القضاء بناحية، فلمَّا مات، صُرِفْتُ، وانقطعت أرزاقي، ولزمتني العطلة والإضافة، فكان من خبري مع رجل خراسانيّ كيت وكيت.

فبكيت، وبكى وقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، هاتوا خمسة آلاف درهم، فجاءوا بها.

فقال: خذ هذه فارددها مكان ما تصرّفت به.

ثم قال: هاتم عشرة آلاف درهم، فجاءوا بها، فقال: خذ هذه فأصلح بها أمرك، وتوسَّع بها في نفسك.

ثُمَّ قال: هاتم ثلاثين ألف، جاءوا بها، فقال: خذ هذه فأصلح بها أمر بناتك، وزوجهن، وإذا كان يوم الموكب، فصر إلينا بسواد[1] لنقلِّدك عملاً، ونرزقك زرقاً.

فحمدت الله، وشكرته، وصلَّيت على رسول الله ﷺ، ودعوت لأمير

---

(١) في أيام المواكب لا يدخل أحد على الخليفة العباسي إلا بسواد.

المؤمنين، وانصرفت والمال معي، وصرت إلى منزلي، وما طلعت الشمس، وأهل المسجد يتوقَّعون خروجي للصلاة، وقد أنكروا تأخُّري عنهم، فنزلت، فصلَّيت بهم، وسلَّمت، وإذا بالخراسانيّ، فأدخلته منزلي، وأخرجت إليه بقيَّة ماله، فرأى ختمه غير صحيح.

وقلت: خذ هذا، فهو بقيَّة مالك، فقد صرفته، وأومأت إلى المال الذي كان معي، وقلت خذ تمام مالك.

فقال: ما قصتك؟.

فأخبرته الخبر، فبكى، وحَلَفَ لا يأخذ شيئاً.

وحلفت عليه، فقال: والله، لا أخذته، ولا أدخلت في مالي شيئاً من مال هؤلاء.

وبدأت بالنظر في أمر بناتي، وتزويجهنَّ، وتجهيزهنَّ، وتقدمت بابتياع سواد، ودابَّة، وغلام.

وصرت إلى المأمون، يوم الموكب، فأُدخلت، فسلَّمت، فأُوقفت مع القضاة، وأخرج إليَّ عهداً من تحت مصلاة، وسلَّمه إليَّ.

وقال: قد قلَّدتك القضاء بالمدينة الشرقية من الجانب الغربي، وهذا عهدي إليك عليها، فاتَّقِ الله، وقد أجريت لك كذا وكذا، في كلّ شهر، رزقاً.

فما زال أبو حسَّان يتقلَّدها في أيام المأمون.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ٢ ـ ٢٣٤.

٨٩

سبب اتصال أبي يوسف القاضي بالرشيد

وحدَّثني أبي، وقال:

كان سبب اتِّصاله[١] بالرشيد[٢] إنَّه قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة، فحنث بعض القوَّاد في يمين، فطلب فقيهاً يستفتيه فيها، فجيء بأبي يوسف، فأفتاه أنَّه لم يحنث، فوهب له دنانير، وأخذ له داراً بالقرب منه، واتَّصل به.

فدخل القائد يوماً إلى الرشيد، فوجده مغموماً، فسأله عن سبب غمِّه، فقال: شيء من أمر الدين قد حزبني[٣]، فاطلب لي فقيهاً أستفتيه، فجاءه بأبي يوسف.

قال أبو يوسف: فلما دخلت إلى ممرّ بين الدور، رأيت فتى حسناً، أثر الملك عليه، وهو في حجرة في الممرّ محبوسٌ، فأومأ إليَّ بإصبعه مستغيثاً، فلم أفهم عنه إرادته، وأدخلت إلى الرشيد، فلما مثلت بين يديه، سلّمتُ ووقفتُ.

فقال لي: ما اسمك؟

(١) يعني أبا يوسف القاضي.

(٢) الخليفة هارون الرشيد: أشهر من أن يعرف، أشهر الخلفاء العباسيين، وكان يتشبَّه في أفعاله بالمنصور، وكان شديداً على العلويين، أعطى يحيى بن عبدالله أماناً بخطِّه ثم قتله، وحبس الإمام موسى الكاظم ثم قتله، وأظهر أنه مات حتف أنفه، ونكب البرامكة النكبة الشهيرة، واستأصل شأفتهم، جبى الرشيد معظم الدنيا. وتوفي بطوس في السنة ١٩٣ (الفخري ١٩٣).

(٣) الحزب: الغم.

قلت: يعقوب. أصلح الله أمير المؤمنين.

قال: ما تقول في إمام شاهد رجلاً يزني، هل يحدُّه؟

قلت: لا يجب ذلك.

قال: فحين قلتها سجد الرشيد، فوقع لي إنَّه قد رأى بعض أولاده الذكور على ذلك، وإنَّ الذي أشار إليَّ بالاستغاثة، هو الإبن الزاني.

قال: ثم رفع رأسه، فقال: ومن أين قلت هذا؟

قلت: لأنَّ النبيَّ ﷺ، قال: **ادرؤوا الحدود بالشبهات** وهذه شبهة يسقط الحد معها.

قال: وأي شبهة مع المعاينة؟.

قلت: ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى، والحكم في الحدود لا يكون بالعلم.

قال: لِمَ؟

قلت: لأن الحدَّ حقّ الله تعالى، والإمام مأمور بإقامة الحدِّ، فكأنَّه قد صار حقّاً له، وليس لأحد أخذ حقّه بعلمه، ولا تناوله بيده، وقد أجمع المسلمون على وقوع الحدِّ بالإقرار والبيِّنة، ولم يجمعوا على إيقاعه بالعلم.

قال: فسجد مرَّة أُخرى، وأمر لي بمال جليل، ورزق في الفقهاء في كل شهر، وأن ألزم الدار.

قال: فما خرجت، حتى جاءتني هديَّة الفتى، وهديَّة أمِّه، وأسبابه، فحصل لي من ذلك، ما صار أصلاً للنعمة، وانضاف رزق الخليفة إلى ما كان يجريه عليَّ ذلك القائد.

ولزمت الدار، فكان هذا الخادم يستفتيني، وهذا يشاورني، فأفتي وأشير،

فصارت لي مَكنَةٌ فيهم، وحرمة بهم، وصلاتهم تصل إليَّ، وحالتي تقوى.

ثم استدعاني الخليفة، وطاولني، واستفتاني في خواصّ أمره، وأنِسَ بي.

فلم تزل حالي تقوى معه، حتى قلَّدني قضاء القضاة.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ١ ـ ٢٥٢.

٩٠

واعظ الرشيد

قال الفضل بن الربيع[١]

حجَّ هارون الرشيد أميرُ المؤمنين، فأتاني فخرجتُ مسرعاً، فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ لو أرسلتَ إليَّ لأتيتُك! فقال: ويحك! قد حَكَّ في نفسي شيء، فانظر لي رجلاً! فقلت ها هنا سفيان بن عُيَيْنة[٢]، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه فقرعتُ الباب، فقال: مَنْ ذا؟ فقلت: أَجِبِ أمير المؤمنين! فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلتَ إليَّ لأتيتُك! فقال له: خذْ لما جِئْناك له رَحمك الله. فحَادَثَه ساعة، ثم قال له عليك دَيْن؟ فقال: نعم! فقال: يا عباسيُّ، اقْض دينَه.

فلمّا خرجنا قال لي: ما أَغْنَى صاحبك عني شيئاً. انظر لي رجلاً أسْألُه! قلت: ها هنا عبدالرَّزاق[٣] بن همَّام! قال: امضِ بنا إليه، فأتيناه فقرعتُ الباب فقال: مَن هذا؟ قلت: أَجِبْ أميرَ المؤمنين! فخرج مُسْرعاً، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ لو أرسلتَ إليَّ لأتيتُك! فقال: خُذْ لما جئناك له؛ فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دَين؟ قال: نعم! قال: يا عباسيُّ، اقْضِ دينه.

(١) انظر قصص العرب ج١/٥٤ ص.

(٢) سفيان بن عيينة: حافظ ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي عنه: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، توفي سنة ١٩٨هـ.

(٣) عبدالرزاق بن همَّام: من حفاظ الحديث الثقات، توفي سنة ٢١١هـ.

فلما خرجنا قال: ما أغْنى صاحبُك عني شيئاً، انظر لي رجلاً أسألُه! قلت: ها هنا الفَضيْل بن عيَاضٍ(1)؛ قال: امضِ بنا إليه، فإتيناه، فإذا هو قائم يصلّي، ويتلو آيةً من القرآن يردِّدُها، قال: اقرع الباب فقرعتُ الباب، فقال: مَنْ هذا؟ قلتْ: أجب أمير المؤمنين! فقال: مالي ولأمير المؤمنين! فقلت: سبحانَ الله! أما عليك طاعتُه؟ فنزل وفتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا، فجعلنا نَجُول عليه بأيدينا، فسبقتْ كفُّ هارون قبلي إليه.

فقال: يا لها من كَفّ! ما ألْيَنها! إن نَجَتْ غداً من عذاب الله عزَّ وجل! فقلت في نفسي: ليكلمنَّه الليلةَ بكلامٍ من قلبٍ نقيٍّ، فقال له: خُذْ لما جئناك له - رحمك الله! فقال له: إنَّ عمر بن عبدالعزيز لما ولِّي الخلافة دعا سالم بن عبدالله ومحمد بن كعبٍ القُرَظي ورجاء بن حَيْوَة، فقال لهم: إني قد ابتليتُ بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ - فعَدَّ الخلافة بلاء. وعددتَها أنت وأصحابك نعمةً.

فقال له سالم بن عبدالله: إن أردتَ النجاة من عذاب الله فَصُمِ الدنيا، وليكن إفطارُك منها الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردتَ النجاةَ من عذاب الله فليكن كبير المؤمنين عندك أباً، وأوسطُهم عندك أخاً، وأصغرُهم عندك ولداً؛ فوقِّر أباك، وأكْرِم أخَاك، وتحنَّنْ على ولدك.

وقال له رجاء بن حَيْوَة: إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله عزَّ وجل فأحب للمسلمين ما تحبُّ لنفسك، واكْرَه لهم ما تكره لنفسك، ثم مُتْ إذا شئتَ وإني أقول لك: إني أخافُ عليك أشدَّ الخوف يوم تَزِل الأقدام، فهل معك - رحمك الله - مثل هؤلاء، أو من يشيرُ عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاءً شديداً، حتى غُشيَ عليه. فقلت له: ارفُقْ بأمير المؤمنين - رحمك الله!

(1) الفضيل بن عياض: من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث، وتوفي سنة ١٨٧هـ.

فقال: يا أمير المؤمنين؛ بلغني أنَّ عاملاً لعمر بن عبدالعزيز شكَى إليه فكتب إليه عمر: يا أخي؛ أذكِّرك طولَ سهرِ أهلِ النار في النار مع خلود الأبَد، وإياك أن يُنصرَف بك من عندالله فيكون آخر العهد بِك، وانقطاع الرجاء منك.

قال: فلمَّا قرأ الكتاب طَوَى البلاد حتى قدم على عمر بن عبدالعزيز؛ فقال له: ما أقدَّمك؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك؛ لا أعودُ إلى ولاية حتى ألقى الله عزَّ وجل. فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال له: زِدْني ـ رحمك الله!.

فقال له: يا أمير المؤمنين؛ إنَّ العباس عمَّ النبي جاء إليه، فقال له: يا رسول الله؛ أمِّرني على إمارةٍ. فقال له النبي: **إنَّ الإمارة حسرةٌ وندامة يوم القيامة؛ فإن** استطعتَ ألاَّ تكون أميراً فافعل. فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال: زدني ـ يرحمك الله!

فقال: يا حَسَن الوجه، أنت الذي يسألُكَ الله عزَّ وجل عن هذا الخَلْقِ يوم القيامة؛ فإن أردت أن تَقِيَ هذا الوجهَ من النار، **فإيَّاكَ أن تُصْبحَ وتُمْسيَ وفي قلبك غِشٌّ على أحدٍ من رعيَّتك**، فإنَّ النبيَّ قال: من أصبح لهم غاشَّاً لم يَرِحْ[1] رائحةَ الجنَّة. فبكى هارون، وقال له: عليكَ دَين؟ قال: دَينٌ لربي لم يحاسبني علي؟ فالويل لي إن سألني؛ والويلُ لي إن لم أُلْهَمْ حُجَّتي، قال: إنما أعني من دَين العباد! قال: إنَّ ربي عزَّ وجلَّ لم يأمرْني بهذا، إنما أمرني أن أُصَدِّق وعده وأطيع أمرَه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾الذاريات ٥٦ ـ ٥٨.

فقال له: هذه أَلفُ دينار، خُذها فأنفِقْها على عيالك، وتقوَّ بها على عبادةِ ربِّكَ! فقال: سبحان الله أنا أدلُّك على طريق النَّجاة، وأنت تكافِئني بمثل هذا؟

---

(١) يرح رائحة الجنة: أي لم يشم ريحها.

سلَّمك الله ووفَّقك! ثم صَمَتَ فلم يكلمنا.

فخرجنا من عنده، فلما صِرْنا على الباب، قال هارون: يا عباسيُّ؛ إذا دَلَلْتَني على رجل فدُلَّني على مثل هذا! هذا سيدُ المسلمين.

فدخلتْ عليه امرأةٌ من نسائه، فقالت: يا هذا؛ قد ترى ما نحنُ فيه من ضيقِ الحال، فلو قبلتَ هذا المال فتفرَّجْنا به، فقال لها: **مَثَلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعيرٌ يأكلون من كَسْبه، فلما كَبِرَ نحروه فأكلوا لحمه.**

فلمَّا سمع هارون هذا الكلام قال: نَدْخل فعسى أن يقبَل المال، فلمَّا علم الفَضيْل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يُكلِّمه فلا يجيبه.

قال الفضل: فبينما نحن كذلك إذ خرجت جاريةٌ سوداء؛ فقالت: يا هذا، قد آذيْتُ الشيخَ منذ الليلة؛ فانصرِفْ رحمك الله! فانصرفنا!.

قصص العرب: ١ ـ ٢٨٢.

(٩١)

صبر العلماء

قال الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي في كتابه «تقدمه الجرح والتعديل» سمعتُ أبي يقول: بقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة ومئتين: ثمانيةَ أشهر. وكان في نفسي أن أقيم سنة. فانقطَعَتْ نفقتي. فجعلت أبيع ثيابَ بَدَني شيئاً بعد شيء، حتى بَقِيتُ بلا نفقة! ومضيتُ أطوفُ مع صديق لي إلى المشيَخَةَ. وأسمعُ منهم إلى المساء. فانصرف رفيقي ورجعتُ إلى بيتٍ خالٍ. فجعلتُ أشرب الماء من الجوع!.

ثم أصبحت من الغد وغدا عليَّ رفيقي. فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جُوع شديد. فانصرف عني وانصرفتُ جائعاً، فلمَّا كان من الغد غدا عليَّ فقال: مُرَّ بنا إلى المشايخ. فقلت: أنا ضعيف لا يمكنني. قال: ما ضعفُك؟ قلت: لا أكتمك أمري. قد مضى يومان ما طَعِمْتُ فيهما شيئاً. فقال لي: قد بقي معي دينار، فأنا أواسيك بنصفه. ونجعل النصف الآخر في الكِراء، فخرجنا من البصرة، وقبضتُ منه النصفَ دينار».

ثمَّ قال ابن أبي حاتم: «سمعتُ أبي يقول: لَّما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري، صِرنا إلى الجار[1]، وركبنا البحر، وكنَّا ثلاثة أنفس: أبو زهير المَرْوَرُوذِيّ شيخ، وآخر نيسابوري.

(١) في «القاموس» الجار موضع بينه وبين المدينة الشريفة يوم وليلة، وقرية بأصبهان وقرية بالبحرين.

ولمَّا كنَّا في البحر احتَلمتُ، فأصبحتُ وأخبرتُ أصحابي بذلك، فقالوا لي: اغمس نفسك في البحر، قلت: إني لا أُحْسِنُ أن أسْبَح، فقالوا: إنا نشُدُّ فيك حبلاً ونَدْلُوك في الماء، فشَدُّوا فيَّ حبلاً وأرسلوني في الماء، وأنا في الهواء أُريدُ إسباغَ الوضوء، فلمّا توضَّأتُ قلت لهم: أرسلوني قليلاً فأرسلوني، فغَمَسْتُ نفسي في الماء فقلتُ: ارفعوني فرفعوني.

وركبنا البحر ثم مشينا فكانت الريحُ في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثةَ أشهر، وضاقت بنا صدورُنا. وفنِيَ ما كان معنا من الزاد، وبقيَتْ بقية، فخرجنا إلى البر، فجعلنا نمشي أياماً على البر، حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء!.

فمشينا يوماً وليلة لم يأكل أحدٌ منَّا شيئاً ولا شربنا، واليومَ الثاني كمِثل، واليومَ الثالث. كلَّ يوم نمشي إلى الليل، فإذا جاء المساء صَلَّينا وألقينا بأنفسنا حيث كنَّا، وقد ضَعُفَتْ أبدانُنا من الجوع والعطش والعَيَاء، فلمّا أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقَطَ الشيخ المَرْوَرُوذِي مغشيَّاً عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل. فتركناه!.

ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قَدْرَ فَرْسَخ أو فرسخين، فضَعُفتُ وسقطتُ مغشيَّاً عليَّ، ومضى صاحبي وتركني!.

فلم يزل هو يمشي إذ بَصُرَ من بعيد قوماً قد قرَّبوا سفينَتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى ﷺ، فلمّا عاينهم لَوَّحَ بثوبه إليهم، فجاؤه معهم الماءُ في إداوة فسقَوْه وأخذوا بيده، فقال لهم: الحقوا رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشيَّاً عليهم، فما شعرتُ إلَّا برجل يصب الماء على وجهي. ففتحتُ عيني فقلت: اسقني، فصَبَّ من الماء في ركوة أو مشربة شيئاً يسيراً، فشَربتُ ورجعَتْ إليَّ نفسي، ولم يُرْوِني ذلك القدر، فقلت: اسقني فسقاني شيئاً يسيراً وأخذ بيدي.

(١) الفرسخ: بمشي القدم ساعة ونصف، وهويزيد على خمس كيلو مترات.

فقلتُ: ورائي شيخ مُلْقىً! قال: قد ذهب إلى ذاك جماعة، فأخَذَ بيدي وأنا أمشي أجر رجليَّ، ويَسقِيني شيئاً بعد شيء، حتى إذا بلغتُ إلى سفينتهم، وأَتَوْا برفيقي الثالث الشيخ، أحسن إلينا أهلُ السفينة، فبقينا أياماً حتى رجعَتْ إلينا أنفسُنا.

ثم كتبوا كتاباً إلى مدينة يقال لها: راية، إلى واليهم، وزوَّدنا من الكعك والسّويق والماء، فلم نَزَلْ نمشي حتى نَفِدَ ما كان معنا من الماء والسَّويق والكعك، فجعلنا نمشي جياعاً عِطاشاً على شَطّ البحر، حتى وقعنا إلى سُلَحْفاة قد رَمَى بها البحر مثلَ التُّرْس، فعَمَدْنَا إلى حجر كبير فضربنا على ظهرها فانفلق ظهرها، وإذا فيها مِثْلُ صُفرة البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقاة على شط البحر، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسَّاه، حتى سكن عنَّا الجوعُ والعطش.

ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة الراية، وأوصلنا الكتاب إلى عاملهم، فأنزلَنا في داره، وأحسن إلينا، وكان يُقدِّمُ إلينا كلَّ يوم القَرَع، ويقول لخادمِهِ: **هاتي لهم اليقطينَ المبارَك**، فقدَّمَ إلينا من ذلك اليقطين مع الخبز أياماً، فقال: واحدٌ منَّا بالفارسية: **ألا تَدْعُوا - لنا - باللَّحْم المشؤوم؟!** وجَعَلَ يُسمعُ الرجلَ صاحبَ الدار، فقال: أنا أُحسِنُ الفارسية، فإنَّ جَدَّتي كانت هَرَوِية، فأتانا بعد ذلك باللحم، ثم خرجنا من هناك وزوَّدَنا إلى أن بلغنا مصر».

صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل صفحة ٦٦.

تم بحمد الله الجزء الثاني
ويليه الجزء الثالث

فايز موسى أبو شيخة

رجال ... ومواقف

الجزء الثاني